الفصل الثالث

❁ القنوات المتخصصة

- القنوات الترفيهية .
- القنوات الثقافية .
- القنوات التعليمية .
- قنوات التسوق .
- قنوات الأخبار .

والبرامج السياسية :

- ❑ قناة الجزيرة
- ❑ قناة العربية
- ❑ قناة الإخبارية
- ❑ قناة النيل
- ❑ قنوات أخرى

القنوات المتخصصة:

من بين أكثر من خمسمائة قناة فضائية عربية، تمثل القنوات المتخصصة، بكل نوعيات التخصص النسبة الأكبر من هذا العدد. ولا يملك من يتصدى للكتابة عن الفضائيات إلا أن يقف طويلًا أمام هذه النوعية من الفضائيات ليس فقط لأنها تضم أحد أهم القنوات التى أحدثت آثارًا هائلة على الساحة السياسية وهى «قنوات الأخبار» بل لأن الكثير من هذه النوعيات ـ خاصة القنوات الدينية والترفيهية ـ أحدثت آثارًا اجتماعية واضحة فى العديد من المجتمعات العربية. كما أن الكثير منها رغم أنه لا ينتمى «عمليًا» للنشاط الإعلامى بل ينتمى إلى نشاط أوسع وهو «الاتصال الجماهيرى» إلا أن له آثارًا عميقه على المشاهدين.

الاتصال الجماهيرى[1]:

مُصطلح «الاتصال الجماهيرى» يطلق علميًا على العديد من ألوان النشاط الإنسانى الذى عرفته المجتمعات البشرية منذ البدايات المبكرة للتاريخ. وهو نشاط يلبى حاجات هذه المجتمعات لمعرفة ما يجرى حولها من أحداث، أو لنقل خبرات هذه المجتمعات البشرية إلى أجيالها المتعاقبة.

ولأن الإنسان استخدم وسائل الاتصال الجماهيرى منذ بداياتها المبكرة لنقل «الأخبار» المختلفة إلى قطاعات كبيرة من الجماهير، ثم واصل إستخدام كل وسيلة جديدة كالطباعة والموجات اللاسلكية لنقل هذه الأخبار إلى أكبر عدد من الجماهير، فقد اصطلح الكثيرون على إطلاق «صفة النشاط الإعلامى» على مجمل عمليات «الاتصال الجماهيرى» عندما يتم استخدام هذا النشاط لأحد الوسائل التى تستخدم فى النشاط الإعلامى سواء الصحف المطبوعة أو البث الإذاعى أو التلفزيونى.

ومع التطور فى علوم الإنسانيات، بدأ علماء «الإعلام» فى وضع النظريات التى تحدد ماهية «النشاط الإعلامى» وتضع المعايير العلمية التى نتعرف بها على صفة كل نشاط من ألوان «الاتصال الجماهيرى».

(١) رأيت أن العرض المبسط والموجز لبعض الأمور النظرية فى الاتصال الجماهيرى والإعلام قد يفيد فى مثل هذا المجال، وحرصت أن أوجز إلى أبعد حد حتى لا أخرج عن سياق الكتاب.

لماذا القنوات المتخصصة ؟

أعتقد ان الظروف الموضوعية ساعدت على أن يتجه الكثيرون إلى بث القنوات المتخصصة. وأبرز هذه الظروف الموضوعية ما يأتي :

أولًا: هذه القنوات تلبى حاجات حقيقية لنسبة كبيرة من المشاهدين الباحثين عن مواد ترفيهية غنائية أو درامية أو رياضية. أو الراغبين فى متابعة أكثر تفصيلًا لموضوعات اقتصادية أو علمية أو راغبى مواصلة التعلم بمتابعة المناهج الدراسية فى مختلف المراحل أو الراغبين فى التسوق عبر التلفزيون. وغير ذلك من الاهتمامات الجماهيرية الكثيرة.

ثانيًا : الإقبال الجماهيرى الكبير على هذه القنوات يشجع المعلنين على عرض إعلاناتهم على هذه القنوات مما يحقق لهذه القنوات موارد مالية كبيرة.

وقد تبارت هذه القنوات فى تقديم العديد من البرامج الترفيهية كما ذكرت، مثل البرامج التى تستضيف النجوم فى مختلف المجالات الفنية والرياضية وتقديم مسابقات حول هذه الموضوعات، ويقوم المشاهدون بالاتصال بهولاء النجوم أو بالمشاركة عبر الاتصالات الهاتفية فى المسابقات، أو بتحميل الأغنيات على الهواتف المحمولة. وكل هذا يحقق لتلك القنوات عائدًا ماديًا كبيرًا، لأن هذه القنوات تحصل على نسبة كبيرة من قيمة هذه الاتصالات الهاتفية.

تأثير هذه القنوات :

رغم أننى أرى عدم انتماء هذه النوعية من القنوات إلى النشاط الإعلامى بالمعايير العلمية، إلا أننى لا أستطيع أن أتجاهل الآثار التى تحدثها فى الجماهير التى تتابعها.

من هنا فإننى أتعرض لهذه القنوات من زاوية رصد هذا التأثير دون تقييم أدائها فى موضوعات تخصصها الذى يتولاه ـ كما ذكرت ـ خبراء فى موضوعات تخصص هذه القنوات.

القنوات الرياضية :

لا يخفى على أى مراقب مدى الإقبال الجماهيرى الواسع على متابعة

مباريات كرة القدم. وهذا الاهتمام بل والحماس الذى يبلغ فى كثير من الأحيان حد الهوس، شجّع جهات كثيرة على إطلاق فضائيات متخصصة فى الرياضة.

وتنافست هذه القنوات على احتكار مباريات بعض المسابقات العربية والإفريقية والعالمية، لتترجم هذا الاحتكار إلى عائد مادى هائل يجذب أعداداً كبيرة من الجماهير للاشتراك فى هذه القنوات المشفّرة مثل الـ ART[1] التى احتكرت بث مباريات المسابقات الإفريقية. وفى صفقة أثارت الكثير من علامات الإستفهام اشترت شبكة قنوات «الجزيرة» من شبكة «ART» حقوق بث مسابقات كرة القدم الأفريقية وغيرها مما تحتكرة شبكة «ART» وتجاوزت قيمة الصفقة مليارى دولار. وبدأ تنفيذ هذه الصفقة فى شهر ديسمبر «كانون ثانى» ٢٠٠٩. وقد فسر البعض هذه الصفقة بأنها «صفقة سياسية» أرادت بها شبكة الجزيرة أن تستأثر بالملايين العربية التى تحرص على مشاهدة هذه المباريات، وإن هذه الملايين بعيداً عن متابعة القنوات المنافسة سترتبط بشبكة «الجزيرة»، وإن نسبة مشاهدى مباريات كرة القدم سوف يرتبطون بقنوات «الجزيرة» الأخرى. ويعزز هذا التفسير فى رأى البعض وضع شبكة «الجزيرة» شروطًا تعجيزية للسماح ببث هذه المباريات على القنوات العربية عامة وقنوات التلفزيون المصرى خاصة. وقد تصادف بالفعل موعد بدء تنفيذ الصفقة مع موعد إقامة مسابقات البطولة الإفريقية التى يشارك فيها المنتخب المصرى لكرة القدم، والتى يحرص ملايين المصريين على مشاهدتها[2].

أما القنوات الرياضية غير المشفرة فتعتمد على إقبال المعلنين على بث إعلاناتهم بكثافة على هذه القنوات .

كان من الممكن لهذه القنوات أن تتبنى رسالة إعلامية تحقق نتائج باهرة فى مجال التنمية البشرية، فتوجه رسالتها الإعلامية فى إطار الشعارات التى رفعتها المجتمعات لتشجيع الرياضة مثل «العقل السليم فى الجسم السليم» «والرياضة ساحة للتنافس الشريف»، «وَتَقبّل الهزيمة بغير مرارة والفرح بالنصر بغيرغرور».

(١) تنافست بعد ذلك العديد من القنوات الرياضية لشراء حق البث الحصرى لمسابقات إقليمية وعالمية .

(٢) وضعت «الجزيرة» شروطًا قاسية وصفها اتحاد الإذاعة والتلفزيون المصرى بالشروط التعجيزية للسماح للقنوات المصرية ببث هذه البطولة، وأضيفت هذه الأزمة إلى باقى الأزمات التى تراكمت بين مصر وقطر.

مثل هذه الشعارات التى كانت تصاحب الدعوة للاهتمام بالرياضة، كانت تجعل من الرياضة وسيلة لقوة الجسد وسلامته، وتهذيب الروح وصقل المشاعر الإنسانية .

تشجيع روح التعصب :

كان هذا الخطاب الإيجابى هو الخطاب الإعلامى السائد فى البرامج الرياضية قبل أن تقتحم المؤسسات المالية خاصة وكالات الإعلان مجال الرياضة لتحولها إلى «صناعة» هدفها تحقيق أكبر عائد مادى ممكن لأصحاب هذه المؤسسات. وكان طبيعيًا مع تغير الأهداف الاجتماعية والإنسانية للمعنيين بشأن الرياضة، أن ينتقل هذا التغيير إلى توجهات تلك القنوات وأن تُختزل كل الرياضيات فى «كرة القدم»، وأن يغذّى خطاب هذه القنوات كل ألوان الإثارة والتعصب لجذب المزيد من الجماهير، وبالتالى الإعلانات التى تسعى للتوجه إلى المواد التى تحقق نسبة مشاهدة عالية. كما يحرّض هذا الخطاب المشاهدين للتنافس الصاخب الذى تترجمه هذه القنوات إلى تنافس فى الاتصالات الهاتفية المحمومة من الجماهير لتجنى أكبر قدر ممكن من الأرباح .

السياسة والرياضة :

ويفسر البعض هذه الظاهرة بأنها نتيجة طبيعية لانسداد آفاق العمل السياسى، الذى يعتبر فى الأوضاع الطبيعية للمجتمعات، النشاط الأكثر جذبًا للشباب . ويضيف هذا التفسير أن أنظمة الحكم العربية ترتاح إلى لاتساع نطاق هذه الظاهرة وتشجعها لتفريغ طاقات الشباب فى هذا الاتجاه ، وحتى لا يوجه الشباب طاقته فى اتجاه أى نشاط سياسى يمكن أن تستثمره قوى معارضة.

والأمر المؤكد سواء اتفقنا مع من يرى أن أصابع أنظمة الحكم ليست بعيدة عن تحريك مثل هذا الاتجاه، أو لم نتفق مع القائلين بهذا الرأى ، فالأمر المؤكد فى تصورى أن هذه القنوات برغم ما تقدمه من مادة ترفيهية مطلوبة ، إلا أن أسلوب الخطاب بهذه القنوات له آثار جانبية سلبية للغاية من ذلك :

أولًا : تكريس روح التعصب بحجة تشجيع بعض الفرق المتنافسة فى كرة القدم ، وقد بلغ هذا التعصب حد التطور إلى عنف متبادل بين أنصار الفرق المتنافسة. ومثل هذه الروح عندما تتكرس فى نفوس الشباب فإنها لن تقتصر على التعصب فقط فى مجالات كرة القدم، بل ستفرض نفسها «كحالة سلوكية» على هذا الشباب المتعصب فى تعامله مع مختلف القضايا والأحداث[1].

ثانيًا: تقديم لاعبى كرة القدم باعتبارهم النجوم التى تمثل مكانة بارزة فى الهرم الاجتماعى ، مما يجعل الشباب يعتبرهم المثل الأعلى الذى يصبو كل شاب لأن يبلغ منزلته ماليًا واجتماعيًا. وينصرف الشباب عن الإعجاب بنماذج العلماء والمثقفين، وبالتالى يفقد المجتمع الحوافز القوية التى تدفع الشباب لارتياد آفاق العلوم والثقافة بمختلف فروعها .

ثالثًا : امتد تأثير هذه الظاهرة إلى مختلف البرامج بالقنوات العامة فأصبح الضيوف المتميزون هم لاعبى كرة القدم بالإضافة إلى نجوم الفن ، وأصبح استضافة العلماء والمثقفين فى البرامج التلفزيونية والإذاعية قاصرًا على بعض البرامج التى تتعرض لموضوعات تخص هؤلاء العلماء وهى برامج يتراجع اهتمام القنوات التلفزيونية بها بدرجة كبيرة .

رابعًا : تسير هذه القنوات على نفس الطريق الذى تسير عليه القنوات الباحثة عن الربح السريع، بتشجيع المشاهدين على الاتصالات الهاتفية سواء للاشتراك فى مسابقات أو للحديث مع أحد نجوم كرة القدم. وتحقق هذه الاتصالات عائدًا ماديًا كبيرًا للقناة.

القنوات التعليمية :

تطلق مصر العديد من الفضائيات المتخصص، مثل قنوات الأسرة والطفل، والقنوات التعليمية وقنوات التعلم العالى، والقناة الصحية .

(١) كشفت أحداث التعبئة الإعلامية التى بلغت ذروة غير مسبوقة فى الإعلام المصرى والجزائرى حول مباريات كرة القدم المؤهلة للمشاركة فى كأس العالم خلال شهر نوفمبر «تشرين ثانى» ٢٠٠٩، كشفت هذه التعبئة الإعلامية عن مدى التأثير السلبى الخطير لخطاب الإثارة الذى تتبناه القنوات الرياضية وبعض القنوات العامة عند التعرض لأحداث كرة القدم ، وقد كادت حملات التعبئة الإعلامية هذه تسبب صدامًا خطيرًا بين مصر والجزائر.

غير أن بعض هذه القنوات تحقق أهدافًا مهمة، رغم أنها لا تنتمى ـ كما ذكرت ـ للنشاط الإعلامى. ومن هذه القنوات، القنوات التى تقدم التعليم الجامعى المفتوح والذى بدأ منذ عام ٢٠٠٩ فى توسيع نشاطه ليجذب أعدادًا هائلة من الشباب الراغبين فى مواصلة التعلم بعد المرحلة الثانوية ، ولم تسعفهم ظروف مادية أوغيرها من الالتحاق بالتعليم الجامعى المنتظم.

وجذبت هذه القنوات منذ اللحظة الأولى أعدادًا هائلة من الشباب الراغبين فى الحصول على دراسات جامعية. وأعتقد أن البث الفضائى لهذه القنوات له أهمية خاصة، لأنه يتيح الفرصة لأعداد هائلة من الشباب العاملين بالبلاد العربية أو الأجنبية، الذين لم تسمح لهم ظروفهم بأن يواصلوا دراستهم حتى المرحلة الجامعية ويرغبون فى مواصلة هذه الدراسة.

وأود هنا أن أشير إلى أن مثل هذه القنوات تعتبر فى تقديرى «قنوات خدمة عامة» أكثرمنها «قنوات إعلامية».

قنوات الأفلام والمسلسلات والأغانى :

هذه القنوات تعنى بالترفيه بكل صورة. وتعتبر الأفلام والمسلسلات من أهم المواد الترفيهية التى تجذب جماهير المشاهدين. ولا تولى أنظمة الحكم هذه النوعية من القنوات اهتمامًا لأنها بعيدة فى نظرها عن التأثير السياسى المباشر.من هنا فقد تركت أنظمة الحكم أمر هذه القنوات للمهتمين بالاستثمارات، وإن كانت بعض الدول العربية ـ خاصة مصر ـ قد دخلت هذا المجال وتتجه سوريا أيضا عبر مؤسسة رسمية لبث مثل هذه النوعية من القنوات، أما السعودية فقد تكفل رجال الأعمال الذين أنشأوا الفضائيات السعودية ببث عدد كبير منها. وقام عدد من مالكى الفضائيات السعوديين والمصريين والخليجيين وغيرهم بإطلاق هذه النوعية من القنوات بعد دراسات جدوى اقتصادية يطمئنون بها إلى أن هذه القنوات ستحقق لهم ربحًا ماديًا مجزيًا.

وتتحقق أرباح هذه القنوات من عائدات الإعلانات التجارية التى تجد فى هذه المواد الترفيهية مواد جاذبة للجماهير العريضة. وأيضًا من خلال مسابقات

وبرامج يشارك فيها نجوم الفن، تستقبل هذه البرامج الاتصالات الهاتفية من الجماهير التى تُقبل بكثافة على إجراء هذه الاتصالات. وكما ذكرنا سابقًا تحصل القنوات على نسبة مجزية من قيمة الاتصالات الهاتفية هذه.

أهداف هذه القنوات :

رغم أن الهدف الذى حددته هذه القنوات بكل وضوح هو تحقيق الأرباح المادية المجزية باعتبار هذه القنوات عملية استثمار اقتصادى بحت، إلا أن أحد رجال الأعمال السعوديين وهو الوليد بن طلال حدد لقنواته «روتانا» هدفًا إضافيًا ذكره فى تصريحات متحديه يقول فيها : إنه سيجعل الجماهير العربية خلال بضع سنوات قليلة تغنى باللهجات السعودية والخليجية.

ولتحقيق هذا الهدف تبنى الملياردير السعودى خطة احتكار عدد كبير من المطربات والمطربين، وقدم الإغراءات المادية التى لا تقاوم ليقدم عدد كبير من هؤلاء أغنيات باللهجة السعودية والخليجية. وكرّس وقتًا كبيرًا من ساعات البث على فضائياته الغنائية والموسيقية لبث أغنيات بهذه اللهجات، بل وخصص فضائية للغناء الخليجى هى قناة «خليجية».

ومضت السنوات ولم تستطع مليارات الوليد بن طلال أن تحقق له هدفه. ويبدو أن الملياردير السعودى صوّر له غرور المال أن تغيير أذواق الجماهير عملية سهلة إذا توفرت الأموال التى تقدم لهذه الجماهير كمّا هائلاً من الأغانى باللهجات التى يريد نشرها. ولم يدرك الملياردير السعودى أن أذواق الجماهير تتشكل عبر سنوات طويلة يتم خلالها تأثر الجماهير بتراكم الاستماع والمشاهدة للأعمال الموسيقية والغنائية، وأن هذه المتابعة طوال سنوات هى التى تشكّل أذواق الجماهير. وقد كانت الأغنية العربية والموسيقى والفيلم لسنوات طويلة أعمالاً مصرية. ولم تفرض هذا الوضع قوة سياسية أو اقتصادية، بل فرضته ظروف موضوعية.

فمصر هى البلد العربى الذى يملك الإمكانات البشرية التى تفرز العدد المناسب من المواهب الثقافية والفنية والقادرة على تقديم أعمال فنية متميزة.

واللهجة العامية المصرية هى اللهجة الأكثر سهولة فى نطقها.

ومصر هى الوطن الحاضن لكل موهبة عربية فنية متميزة، وهى بوابة العبور الطبيعية لهذه المواهب إلى الوطن العربى كله.

كل هذه الظروف الموضوعية هى التى جعلت الغناء المصرى والموسيقى المصرية والفيلم المصرى هى المواد التى تتقبلها أذواق الجماهير العربية من أقصى المشرق العربى إلى أقصى المغرب.

ورغم أن رهان الملياردير السعودى لم يتحقق حتى الآن، إلا أن الاطمئنان إلى استقرار الظروف الموضوعية وحدها لا يضمن أن تظل هذه الظروف ضامنة لعدم تغيير أذواق الجماهير العربية، خاصة إذا واصل الملياردير السعودى وأمثاله المحاولات وأنفقوا الأموال الطائلة وكرسوا مساحات زمنية كبيرة على شاشات الفضائيات التى يملكونها وواصلوا الإلحاح على المشاهدين بنوعية الفنون التى يريدون لها أن تكون الفنون المهيمنة على أذواق الجماهير العربية.

مسئولية المثقفين والفنانين المصريين تحتم عليهم أن ينتبهوا لمثل هذه المخططات. ولا يدفعنى لهذه المناشدة تعصب لمصر، فأنا ممن يؤمنون ايمانًا راسخا بتشجيع ومؤازرة كل مثقف وكل فنان عربى متميز فى أى قطر عربى كان. لكن يدفعنى لهذه المناشدة إدراك لحقائق الجغرافيا والتاريخ، وهى حقائق تؤكد أن مصر هى الحاضنة الطبيعية لكل ألوان الثقافة والفنون العربية عبر تاريخ يمتد لقرون وفى كل الظروف المواتية والصعبة التى مرت بها البلاد العربية. وهذه حقائق لا تستطيع أن تغيرها مليارات الوليد بن طلال أو سواه.

وهنا أيضًا أود أن أؤكد أننى أرحب كل الترحيب ببث الفنون العربية بكل تنويعاتها على الفضائيات، لتتاح للمشاهد العربى فرصة التعّرف المباشر على هذه الفنون وتذوقها.

ومن خلال هذا البث تتقارب اللهجات العامية وتلتقط الجماهير بحاسة التذوق الفطرية كل ما هو جميل وأصيل من هذه الفنون. وتتفاعل هذه الفنون تأثيرًا وتأثرًا، وأخذًا وعطاءًا. وتنصهر فى بوتقة التذوق الجماهيرى العربى

لتُخرج لنا سبيكة من «فنون عربية» تتشكل من أنقى وأفضل العناصر فى الفنون المكّونة لها. وأعتقد أن الفضائيات العربية ساهمت بدرجة كبيرة فى تقريب الأذواق بل واللهجات المحلية العربية. وهذا التقارب هو الطريق الطبيعى لوحدة عربية فنية تتشكل بها كل الفنون العربية وتحت عباءتها يزدهر التنوع.

وإذا كانت البدايات قد اقتصرت فى الغالب على القنوات الدينية والرياضية والأفلام والغناء والمسلسلات. إلا أن السنوات الأخيرة شهدت تنوعًا كبيرًا فى المجالات التى اقتحمتها القنوات لمتخصصة. منها قنوات متخصصة فى التسّوق وفى العقارات والسيارات والسياحة وغيرها، ويظل الباب مفتوحًا للكثير من ألوان النشاط الذى يمكن أن يبث من خلال قنوات فضائية متخصصة.

قنوات متنوعة :

من القنوات التى أُنشئت لتقديم ألوان من النشاط الذى يجذب قطاعات من الجماهير فى المجتمعات العربية ، القنوات المعنية بالنشاط المالى والاقتصادى ، والنشاط العقارى ، والسياحى . ومع تزايد اهتمام الجماهير بنشاط ما ، نرى أن بعض المعنيين بهذا النشاط يسارعون بإطلاق فضائيات متخصصة فى متابعة هذا النشاط.

وهذه القنوات تلبى حاجات حقيقية على ساحة الإعلام العربى. فالنشاط المالى والعقارى والسياحى والصناعى وغيره من ألوان النشاط الاستثمارى لم يعد محدودًا فى المكان أو التأثير على قطر عربى دون آخر، بل أصبح نشاطًا عابرًا لحدود الأقطار العربية ، بل وتجاوز ذلك ليعبر إلى ساحات عالمية.

ويبدو أن فوائض البترول فى دول الخليج والسعودية التى تحققت خلال قفزات أسعار البترول فى نهايات القرن العشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين، قد خلقت فرصًا كبيرة للاستثمار فى مختلف المجالات. ولم تعد الظروف الموضوعية فى هذه الأقطار قادرة على استيعاب هذا الكم الهائل من الأموال ، فانطلقت رءوس الأموال العربية للاستثمار فى مختلف البلاد العربية كلما وجدت فرصة مناسبة لاستثمار يحقق أرباحًا مناسبة وآمنة فى الوقت

نفسه. وساهم الخوف من الاستثمار فى أمريكا وأوربا فى ظل ظروف وقرارات هذه الدول بتجميد أموال مؤسسات بل وشخصيات عربية ، ساهم هذا الخوف فى ترشيح البلاد العربية لتكون الساحة المناسبة لاستثمار فوائض الأموال العربية. وهنا كان إطلاق فضائيات عربية معنية بشئون النشاط المالى والاستثمارى فى كل صوره ضرورة تفرضها هذه الأوضاع ويشجعها اهتمام جماهير عريضة فى البلاد العربية بهذا النشاط .

ومن الطبيعى أن يكون مشاهدو هذه القنوات من الفئات المعنية بهذا النشاط وهى فئات لا تمثل نسبة كبيرة من المواطنين. لأنها فى أغلب الأحيان من المعنيين بالاستثمار وبالنشاط المالى بشكل عام، وهذه فئة محدودة فى دائرة رجال الأعمال والخبراء المتخصصين فى الأمور المالية والاقتصادية.

وسواء أنجحت هذه المحاولات أم لم تحقق النجاح الذى يتوقعه المسئولون عن هذه القنوات، فإن استمرار هذه القنوات يظل مرهونًا بقدرة المؤسسات المالية التى أطلقت هذه القنوات على تحمل نفقات تشغيلها دون انتظار لعائدات مالية كبيرة من الموارد التى تعتمد عليها القنوات الأخرى، وهى «إعلانات» الاتصالات الهاتفية من الجماهير، وإن كانت بعض هذه القنوات قادرة على الحصول على إعلانات لها علاقة بألوان النشاط الاستثمارى الذى تخصصت فيه.

القنوات الثقافية :

القنوات الثقافية تُبث بأشكال عدة. منها القنوات التى تعتمد على تقديم الندوات والبرامج الحوارية التى تناقش قضايا ثقافية منوعة. ومنها القنوات التى تقدم برامج وثائقية أو برامج خاصة.

القنوات الثقافية المصرية :

أطلق اتحاد الإذاعة والتلفزيون فضائيتين ثقافيتين من منطلق الاهتمام التقليدى بتخصيص قنوات ثقافية توجه إلى النخبة المثقفة. فقد أطلقت الإذاعة

المصرية فى الخمسينيات من القرن العشرين «البرنامج الثانى» لتقديم هذه النوعية من البرامج[1].

والمتابع لهاتين القناتين يلاحظ مدى نقص الإمكانات المتاحة لهما، هذا النقص الذى لا يمكّن القائمين على أمرهما من جعل هاتين القناتين ساحة لمتابعة ألوان النشاط الثقافى بكل صوره فى مختلف البلاد العربية .

وأعتقد أن الهدف من إطلاق القناتين المصريتين ليس فقط متابعة النشاط الثقافى المصرى. بل إن الهدف هو نفسه الهدف الذى حددته الإذاعة المصرية يوم أطلقت «البرنامج الثانى» فى النصف الثانى من القرن العشرين، والهدف هو أن تكون بعض قنوات التلفزيون المصرى ساحة لتفاعل النشاط الثقافى العربى، وأن تكون هذه القنوات البوتقة التى تتفاعل فيها الإبداعات العربية من كل منابعها، وأن تساهم فى بعث الحيوية فى الحياة الثقافية فى جميع البلاد العربية، وهى قنوات تُوجّه للنّخب الثقافية.

وقيام « قناة مصرية » بهذا الدور هو الوضع الطبيعى الذى يضع على كاهل مصر مسئولية احتضان ورعاية الإبداعات الثقافية والفنية العربية. وإذا كان هذا هو الهدف المأمول ، فإن الواقع لم يحقق هذا الهدف حتى فى حده الأدنى.

والملاحظة التى تستحق التسجيل أن هذه النوعية من البرامج عنيت فى المحل الأول بالثقافة الأدبية بكل فروعها.

غير أن ألوانًا أخرى من الثقافة المهمة غابت بدرجة كبيرة فى هذه البرامج وهى برامج الثقافة العلمية التى أتصور أن يكون لها مكان متميز بين هذه البرامج وهى برامج تكاد تختفى أو تظهر على استحياء فى برامج تُقدّم بطريقة لا تتناسب مع أهمية هذه النوعية من الثقافة. أو بعض البرامج العلمية التى تعتمد على برامج أجنبية مترجمة .

(١) تم تغيير الاسم إلى البرنامج الثقافى بعد ذلك بسنوات .

الثقافية العلمية :

تطلق هذه النوعية من القنوات شبكة «الجزيرة» وشبكة «MBC». وتقدم هذه القنوات أفلامًا وبرامج وثائقية أجنبية مترجمة إلى اللغة العربية[١].

كما تنتج الجزيرة أفلامًا وبرامج وثائقية خاصة بها تتعرض للأحداث العربية والإسلامية، التى لا تتعرض لها عادة المؤسسات الأجنبية التى تنتج الأفلام والبرامج الوثائقية.

وقد سجلت «الجزيرة» سلسلة مهمة من هذه البرامج التى قدمت للمشاهد العربى معلومات بالغة الأهمية عن الأقليات المسلمة التى تعيش فى مناطق عديدة من العالم، وبعضها لم يكن المشاهد العربى يعرف عنها شيئًا. وذلك من خلال حلقات برنامج «نقطة ساخنة» كما قدم برنامج «سرى للغاية» حلقات حول موضوعات مهمة تتعلق بأحداث عربية أو إسلامية.

كما تقدم قناة «العربية» السعودية مساهمات المهمة فى هذه النوعية من البرامج الوثائقية. وتشارك قنوات كويتية بنصيب فى هذه النوعية من القنوات الوثائقية .

وتقدم بعض البلاد العربية ضمن قنواتها الرسمية قنوات متخصصة فى البيئة وتعتمد أيضًا على مواد فيلمية أجنبية فى أغلب الأحيان.

القنوات الدينية[٢]

تكاثرت القنوات الدينية بسرعة كبيرة بعد أن أطلقت شبكة ART قناة «اقرأ»، كما أطلقت بعض القوى المسيحية خاصة المصرية قنوات دينية مسيحية[٣].

ولم تطلق أية حكومة عربية قنوات دينية ضمن منظومة قنواتها الرسمية، بل اكتفت بتقديم عدد كبير من البرامج الدينية فى قنواتها. وظل إطلاق القنوات الدينية قاصرًا على المؤسسات الخاصة.

(١) تخطط سوريا لإطلاق فضائية وثائقية.

(٢) بلغ عدد القنوات الدينية الإسلامية حتى صدور هذا الكتاب قرابة المائة قناة، والعدد قابل للزيادة بمعدلات كبيرة.

(٣) هذه القنوات المسيحية لا تطلق من مصر بل تطلق من بعض البلاد الأوربية .

القنوات الإسلامية :

حالة التدين التى تصاعدت فى العقود الأخيرة فى المجتمعات العربية عامة والمجتمع المصرى خاصة، كانت حافزًا لمالكى القنوات الخاصة لإطلاق قنوات مكرسة للشأن الاسلامى، وكانت قناة «اقرأ» إحدى قنوات ART هى الأسبق بين هذه النوعية من القنوات.

ولفت نظر المهتمين بالاستثمار فى مجال البث التلفزيونى والمهتمين أيضًا بالتأثير على التوجهات الفكرية للجماهير ،لفت نظر هؤلاء وأولئك كثافة المشاهدة الهائلة لقناة «اقرأ».

وهنا إندفع هؤلاء لإنشاء القنوات المتخصصة فى الشأن الإسلامى، وتنافست هذه القنوات لجذب الجماهير باستخدام شتى الوسائل التى تحقق لها السبق فى هذا التنافس. وكان طبيعيًّا أن تختلف الوسائل باختلاف أهداف مالكى هذه القنوات.

الترويج لاتجاهات فكرية

القنوات المملوكة للسعوديين شركات أو أفراد، عنيت بالموضوعات التى تروّج للفكر الوهابى فى صيغته الأكثر تشددًا، خاصة فى الأمور المتعلقة بقضايا هامشية فى طقوس العبادات. كما اهتمت بإبراز نمط الحياة فى السعودية باعتباره النموذج الإسلامى «الذى يجب أن يُحتذى والذى يحقق الحكم بالشريعة الإسلامية». وهو المطلب الذى تتبناه حركات إسلامية كثيرة فى جميع البلاد العربية والإسلامية.

أما القنوات التى أطلقتها مؤسسات أو أفراد يؤمنون بالمذاهب الشيعية، والتى بدأت البث بعد احتلال العراق وصعود النفوذ الشيعى وتكاثرت بسرعة، فقد ركزت على الموضوعات التى تروّج للفكر الشيعى، وقد بالغ بعضها فى التركيز على نقاط الخلاف بين المذاهب الشيعية والمذاهب السنية. ولجأت بعض هذه القنوات إلى المبالغة وتضخيم هذه الخلافات، وبالمقابل سارت بعض

القنوات التى يملكها أهل السنّة على نفس الطريق ليشعل الطرفان حربًا مذهبية إسلامية، وينفخ بعض الدعاة على الجانبين فى نيران هذه الخلافات المذهبية.

ولم تنجح محاولات مخلصة من «عقلاء» سنة وشيعة تتحرك تحت شعار التقريب بين المذاهب الإسلامية ،وتوحيد الصف الإسلامى، لم تنجح هذه المحاولات فى وقف هذا الصراع المذهبى المتصاعد على الفضائيات ٠

التجارة بالإسلام :

تلقف «تجار الإعلام» والمتاجرون بعواطف الجماهير الدينية، تلقفوا نجاح الفضائيات الإسلامية فى جذب الجماهير، فدخلوا بقوة مجال الاستثمار فى هذا المجال. فأُطلقت عشرات الفضائيات الاسلامية التى لا يعنيها إلا تحقيق أكبر قدر ممكن من الربح المادى. وبحث مالكو هذه القنوات عن الوسائل الأكثر إثارة للعواطف الدينية لجذب الجماهير العريضة، خاصة البسطاء الأكثر تقبلاً للخرافات وأساليب «الدروشة»، فانطلقوا فى تقديم هذه المواد، واستغلوا العواطف الدينية للجماهير «لبيع» الفتاوى المتخلّفة عبر الاتصالات الهاتفية التى تحقق لهذه القنوات أرباحًا خيالية تتمثل فى النسبة التى تحصل عليها هذه القنوات من أجور الاتصالات الهاتفية.

وظهرت قنوات تروّج للخرافات والدجل وترتدى مسوحًا إسلامية، كقنوات العلاج بالقرآن، وقنوات تقرأ الطالع وتفسر الأحلام وتصنع الأحجبة.

كما تنافست هذه القنوات فى الترويج للأفكار الأكثر تشددًا وتزمتًا، واعتلى منابر الإفتاء فى هذه القنوات من أطلقوا على أنفسهم «الدعاة» الذين تفننوا فى الأداء التمثيلى الذى يدغدغ عواطف الجماهير. وركز هؤلاء الدعاة على الأمور الهامشية التى تتعلق بطقوس العبادات أو بتحريم نوعيات معينة من الملابس ومظاهر السلوك اليومى للمسلم، سواء فى سعيه لعمله وفى الدخول والخروج من دورات المياه ؟! أو فى طريقة تناول للطعام.

وتبارت هذه القنوات فى تقديم من أطلقت عليهم وصف «الدعاة» ليقدموا الفتاوى ويعظوا الجماهير بالرضا بما قسمه الله لهم، ويبشرونهم بأنهم سيحصلون فى الجنة على النعيم الذى ينتظرهم. وتنافس هؤلاء الدعاة فى إقناع الجماهير بأن الزهد فى الدنيا هو الطريق إلى النعيم فى الآخرة، كما تنافسوا فى إصدار الفتاوى التى تهبط بمكانة المرأة إلى مستوى الجوارى والإماء. سواء فى علاقتها بزوجها أو فى ملبسها أو فى سلوكها فى المجتمع بشكل عام.

تأثير هذه القنوات :

يبدو التأثير الخطير لهذه القنوات على الجماهير العربية بدرجة واضحة فى المجتمع المصرى. فمحاولة «التدين» الشكلى تسود هذا المجتمع مثل انتشار ظاهرة الحجاب والنقاب وتقصير الثياب للرجال. وترك العمل فى المصالح والمؤسسات لإقامة صلاة الجماعة على حساب أوقات العمل سواء فى الإنتاج أو تقديم الخدمات المستحقة للجماهير. والمفارقة أن الانتشار الكثيف لمظاهر التدين الشكلى هذا يقابلة انهيار كامل فى منظومة القيم الأخلاقية التى تمثل جوهر الاسلام، كإتقان العمل والالتزام بالصدق والبعد عن الغش ورفض كل ألوان الفساد من رشاوى ونصب ونهب. هذا التناقض بين أهداف ومقاصد الإسلام العليا التى يُفترض أن تسود فى مجتمع متدين، وبين هذا الحرص على مظاهر شكلية باسم التدين، هذا التناقض يكشف عن تأثير بالغ الخطورة فى اتجاه هذه الفضائيات لتشجيع الفكر الذى يتناقض تمامًا مع صحيح الإسلام ومع جوهره.

محاولة لتفسير الظاهرة :

يحاول الكثيرون تفسير هذه الظاهرة، ويرى البعض أن البداية ترجع إلى زلزال الهزيمة الكبرى فى عام ١٩٦٧، فالشعب المصرى الذى حلّق فى السماء مع إعلامٍ يبشّره بنصر مؤكد، ثم أفاق على هزيمة مذلّة ولم يجد من يقدم له تبريرًا منطقيًا لما حدث، هرب إلى أمجاد انتصارت للمسلمين فى سنوات كانوا ملتزمين فيها بتعاليم الشرع. وساهم دعاة الفضائيات فى إقناع الجماهير بأن الهزيمة التى لحقت بنا ترجع إلى أن الشعب المصرى تهاون فى الالتزام بهذه التعاليم.

ووجد هذا التفسير من يشجعه من الشيوخ، الذين رأوا أن اللحظة مناسبة ليكونوا القيادة التى تهدى الجماهير إلى السلوك القويم الذى يلتزم بمبادئ الشريعة الإسلامية.

ورغم موقف نظام الحكم فى مصر خاصة وأنظمة الحكم فى الدول العربية عامة الرافض لأى نشاط يرفع راية الإسلام، فقد رحّبت هذه الأنظمة كلها بهذا الاتجاه وشجعته حتى تقنع الجماهير بأنها ـ أى الجماهير ـ هى المسئولة عن الهزيمة لأنها لم تلتزم فى حياتها بالسلوكيات التى يرتضيها الإسلام. كما أن تكريس هذه الاتجاهات التى تُعنى بالتدين الشكلى وتحضّ على التواكل والاستسلام الذليل للبؤس والظلم بحجة الرضى بقضاء الله وقدره، هذه الاتجاهات تضمن لأنظمة الحكم مناخًا مناسبًا لممارسة كل ألوان الطغيان والقهر دون أن تخشى من غضب الجماهير أو سخطهم.

ويرى البعض أن هجرة المصريين الكبرى إلى بلاد الخليج والسعودية بشكل خاص وعودتهم بثروات معقولة، وكثير منهم من العامة محدودى الثقافة تأثروا بالحياة فى هذه البلاد وحاولوا تقليد نمط السلوك فى تلك البلاد. كما أنهم سمعوا هناك فتاوى المؤسسة الدينية التى تفسر الإسلام بالمنظور الأكثر تشددًا وتخلفًا.

ويضيف هؤلاء أن المملكة العربية السعودية رأت أن تستغل هذا المناخ لتصوّر نظام الحكم السعودى على أنه الحكم الذى يلتزم بتعاليم الإسلام وينفّذ الشريعة الإسلامية تنفيذا أمينا. ويستشهد هؤلاء بمئات الكتب التى تتضمن هذه الدعوات المتخلّفة والتى تباع فى مصر بأقل من تكلفتها بكثير، مما يؤكد أن وراء انتشار هذه النوعية من الكتب قوى لها من القدرة المالية والنفوذ الذى يمكّنها من تنظيم مثل هذه العملية، كما أن بداية هذه الفضائيات بفضائية سعودية ليس من قبيل المصادفة.

وأعتقد أن ظاهرة التدين الشكلى هذه لا ترجع إلى سبب واحد، لكنها نشأت بتضافر وتكامل هذه الأسباب جميعها، وأنها ـ أى هذه الأسباب ـ وكثير غيرها ساهمت فى انتشار هذه الظاهرة.

فى هذا المناخ تنمو بذور كل دعوات الفتنة المذهبية. فقد حرصت بعض القنوات العراقية فى تقديم مواد وموضوعات تتعرض للمذاهب السنية وتهاجمها. وجاء الرد عنيفًا من بعض الفضائيات التى تملكها جهات سنية كما ذكرنا من قبل. وزاد من حدة الاشتباك الصراع السياسى الذى تقوده بعض البلاد العربية ـ وفى مقدمتها مصر والسعودية ـ ضد إيران، واختلطت الأهداف السياسية بالأمور المذهبية فى الخطاب الإعلامى على الجانبين.

وعندما أتوقف بهذا التفصيل أمام ظاهرة التدين الشكلى فإننى لا أبتعد عن الحديث المباشر عن الفضائيات الدينية الإسلامية، لأنها ـ أى هذه القنوات ـ ما كانت لتنتشر بهذا العدد الكبير وبسرعة مذهلة إلا إذا كانت تلبى حاجة حقيقية لجماهير عريضة تأثرت بدعوى التدين الشكلى، وأخذت تبحث عن كل صوت يزيّن لها هذا الاتجاة ويداعب عواطفها الدينية.

القنوات المسيحية:

أطلقت قوى مسيحية من المهاجرين إلى أوربا وأمريكا عددًا من الفضائيات المُكرّسة للتبشير بالمسيحية، وبعضها يلتزم فى نشاطة التبشيرى بالدعوة لاعتناق المسيحية دون التعرض مباشرة لمهاجمة الإسلام، وإن كانت بعض الفقرات التى تقدمها هذه القنوات ـ المعتدلة نسبيًا ـ تستفز المصريين المسلمين مثل تقديم بعض الفتيات أو الشبان المصريين المسلمين الذين تحولوا إلى المسيحية ليقص حكاية هذا التحول، وكيف واجهوا رفضًا عنيفًا من عائلاتهم لكنهم بالإصرار واصلوا طريقهم. ويدعو هؤلاء الشباب المسلم بالتحول إلى المسيحية مثلهم.

ومن بين هذه القنوات تتبنى قناة اسمها «الحياة»[1] خطابًا إعلاميًا يصل إلى ذروة الاستفزاز لجموع المسلمين. ففى هذه القناة يتولى أحد القساوسة الأرثوزكس[2] تقديم برنامج يومى يكرسة للهجوم على الرسول محمد ﷺ وعلى القرآن الكريم. ويستخدم هذا القسيس عبارات بذيئة وسوقية فى وصف الرسول ﷺ والصحابة والمسلمين عامة.

(١) هذه القناة لا علاقة لها بقنوات «الحياة» التى أطلقها رجل الأعمال المصرى الدكتور سيد البدوى وتبث برامجها من قبرص.

(٢) هذا القسيس يدعى زكريا بطرس، وقد أعلنت الكنيسة الأرثوزكسية المصرية براءتها مما يقدمه هذا القس من هجوم على الإسلام.

وتتبنى كل هذه القنوات دعاوى تتحدث عن إضطهاد المسيحيين فى مصر، وتتصيد أية أحداث مهما كانت صغيرة لتضخمها وتصورها على أنها حلقة من إضطهاد منظم يمارسه كل المصريين المسلمين ضد المصريين المسيحيين.

كما يركز عدد من هذه القنوات فى خطابها على وصف الفتح الإسلامى فى مصر بأنه «غزو واحتلال عربى لمصر» وأن المصريين المسلمين «غرباء» فى مصر التى هى وطن للمسيحيين وحدهم.

وتدافع هذه القنوات عن مطالب للمسيحيين المصريين تتبناها منظمات من المصريين المسيحيين بالمهجر. ومع اختلاف الخطاب فى هذه القنوات بين خطاب معتدل نسبيًا وخطاب بالغ العنف والتطرف، فإن هذه القنوات جميعًا تضرب على نغمة الاضطهاد الذى يعانى منه المصريون المسيحيون. كما تفرد هذه القنوات مساحات لعدد من المسيحيين المصريين الذين يشكلون فى البلاد الأوربية وأمريكا جاليات قوية تتهم الحكومات المصرية بأنها تهدر حقوق المسيحيين فى مصر، وينادى هؤلاء بضرورة تحقيق مطالب المسيحيين. وبعض هذه المطالب تتعلق بحرية بناء الكنائس والحصول على مواقع قيادية فى مؤسسات الحكم تتناسب مع عدد المواطنين المسيحيين وغيرها من المطالب.

والحقيقة أن بعض هذه المطالب تمثل بالفعل مطالب مشروعة، ويتحمس لتحقيقها كل العقلاء من المواطنين المصريين مسلمين ومسيحيين.

فى هذه الأجواء من التعصب والانقياد الجماهيرى لعواطف دينية تفتقر إلى معرفة حقيقية بصحيح الإسلام والمسيحية تنفخ بعض القنوات الدينية الاسلامية والمسيحية فى نيران الفتنة الطائفية، وتجد استجابة لدى الجماهير العريضة التى تتابع هذه القنوات، خاصة فى مصر.

الخطر الأكبر:

تصاعد هذه الموجة من التعصب المستند إلى التدين الشكلى يفتح الباب أيضًا أمام دعوات العنف والتطرف الخطير، الذى يتبنى أفكارًا مغلوطة على

كلا الجانبين المسلم والمسيحى، وتصبح الأرض مهيأة لأن تنمو فيها الأفكار المتطرفة التى تجعل الأجواء فى مصر مُهيأة فى أى لحظة لانفجار عمليات عنف طائفى لأتفه الأسباب[1].

أهداف هذه القنوات :

لهذه القنوات أكثر من هدف، ومن أهمها هدفان :

الأول : تكريس ثقافة الاستسلام للواقع، والرضوخ للقهر والظلم بمنطق الرضا بقضاء الله وقدره، وقبول كل ما يصدر عن الحاكم من قرارت أو تصرفات مهما كانت ظالمة أو خاطئة بالتفسير الخاطئ للآية الكريمة ﴿وأطيعوا الله ورسوله وأولى الأمر منكم﴾. وتكريس هذه الثقافة تضمن لأنظمة الحكم العربية عدم مواجهة معارضة جادة وقادرة، لأن الأغلبية الساحقة من الجماهير مستسلمة لهذه الاتجاهات التى تُلبس الاستسلام والرضا بالمهانة والمذلّة لَبُوسًا إسلاميًّا.

الثانى: تسعى الدول التى تعتبر نفسها حامية لمذهب إسلامى معين سنى أو شيعى إلى إقناع الجماهير العريضة فى جميع البلاد العربية والإسلامية بأنها تقدم النموذج المثالى الصحيح للإسلام، وأنها بتطبيق هذا المذهب تطبق الشريعة الإسلامية الحقة. وتقوم السعودية بدور كبير فى هذا الاتجاه بالنسبة إلى جماهير المذهب السنى.

وعلى الجانب الآخر تتبنى الفضائيات العراقية التى تطلقها قوى سياسية شيعية الترويج للمذهب الشيعى، وتقدم نماذج النجاحات السياسية لبعض هذه القوى فى العراق وإيران ولبنان كشاهد على أن هذه النجاحات السياسية وراءها إيمان بالمذهب الشيعى.

وتهدف كل من السعودية وإيران إلى كسب تعاطف وتأييد الجماهير العريضة فى البلاد العربية لهذه التوجهات المذهبية، لتقوم بعد ذلك بترجمة هذا الاقتناع إلى نفوذ أدبى وسياسى، حيث ترى الجماهير المؤيدة للمذهب

(١) شهدت مصر بالفعل أحداث عنف طائفى خطيرة خاصة فى بعض قرى ومدن الصعيد فى عام ٢٠٠٩ وبداية عام ٢٠١٠ ، لعل من أخطرها ما حدث فى مدينة نجع حمادى محافظة قنا.

الوهابى أن السعودية هى راعية وحامية السنة الصحيحة وأنها الوطن الأم لأهل السنة. أما إيران فتكسب نفوذًا هائلا فى أوساط الشيعة والنفوذ الإيرانى فى أوساط الشيعة أعمق وأكبر بكثير من أى نفوذ للسعودية فى أوساط السنة، لأن طبيعة المذهب الشيعى الذى يتبنى منطق «ولاية الفقيه» يجعل لرأى رجل الدين منزلة خاصة لدى المشاهد المعتنق للمذهب الشيعى ويراه مرجعية لا تقبل الجدل. هذا المنطق يجعل ارتباط الشيعة فى كل مكان بإيران ارتباطًا وثيقًا خاصة بعد قيام نظام الحكم الإسلامى الحالى فى إيران، واعتبار المرجعية الشيعية العليا هى المرجعية الإيرانية فى «مدينة قم الإيرانية».

هذه هى الأهداف الرئيسية للفضائيات التى تملكها وتهيمن عليها أنظمة الحكم العربية[1].

أما الفضائيات الإسلامية التى أطلقها رجال أعمال أو مؤسسات خاصة فإن هدفها الأوحد هو تحقيق أرباح مادية كبيرة.

وتحقق هذه القنوات أرباحًا مادية ضخمة سواء من خلال تقديم مسابقات تشارك فيها الجماهير بالاتصالات الهاتفية وجوائزها رحلات حج أو عمرة، أو من خلال برامج تقدم الفتاوى أو تفسر الأحلام وذلك أيضًا عبر الاتصالات الهاتفية. والنسبة التى تحصل عليها أى قناة فضائية من قيمة الاتصالات الهاتفية تكفل للقناة دخلاً ماديًا كبيرًا. وفى حالة القنوات الدينية فإن كثافة الاتصالات تبلغ درجة هائلة مما يحقق للقنوات الإسلامية أرباحًا مادية ضخمة. ولا تتوفر أية معلومات تفصيلية عن التمويل الذى يُمكّن هذه القنوات من الاستمرار فى البث دون أن تواجه مشكلات مالية رغم كثرة ما ينفقة أصحابها وعدم وجود موارد مادية طبيعية سواء من إعلانات أو نسبة الاتصالات الهاتفية. وهذه الظاهرة دفعت البعض إلى تفسير ذلك بأن هذه القنوات تتلقى «دعما ماليًا» هائلاً من بعض الدول لتقوم بأداء دورها فى نشر روح التعصب وتكريس المفاهيم المتخلّفة. ويعزز هذا التفسير تكاثر هذه القنوات بدرجة لافتة للنظر.

(١) رغم عدم إطلاق هذه الأنظمة قنوات دينية رسمية إلا أن عددًا كبيرًا من هذه القنوات تهيمن عليه بشكل كامل أنظمة الحكم العربية خاصة النظام السعودى.

قنوات الأخبار والبرامج السياسية :

عندما بدأ البث الفضائى، كان الوصول إلى الجماهير العربية على امتداد الوطن العربى هو الهاجس الذى يداعب خيال وزراء الإعلام فى البلاد العربية المختلفة.

وهذا الهاجس أمر طبيعى فى ظل أوضاع عربية كثيرًا ما تنشب فيها خلافات عربية عربية، ويحتاج كل نظام إلى ذراع إعلامية طويلة تدافع عن سياساته وتهاجم خصومه.

وعندما بدأ البث الفضائى العربى كانت العلاقات العربية ـ العربية علاقات هادئة، ولم تفكر الدول التى بدأت البث الفضائى، مصر والسعودية، فى استخدام هذا البث فى مجال الخلافات المكتومة، لأنها تدرك أن فتح هذا الباب ربما يشجع آخرين على استخدام البث الفضائى للوصول إلى الجماهير العربية على امتداد الوطن العربى كله. وفى هذه الحالة يخشى أن تقوم تلك القنوات بتقديم الأخبار والمعلومات التى لا يريد أى نظام حكم عربى أن يطلع عليها شعبه. وظلت هذه الفضائيات مجرد «أداة ردع» إعلامية. وبقيت الجماهير العربية أسيرة التعتيم الإعلامى الذى تفرضه عليها أنظمة الحكم. وقد ظلت الساحة العربية منذ عرفت البلاد العربية الإعلام المسموع «الإذاعة» والإعلام المرئى «التلفزيون» تعانى من فراغ تام فيما يتعلق بالأخبار والبرامج السياسية التى تتعرض لسياسات أنظمة الحكم ، خصوصًا تلك التى تتعرض لقضايا داخلية حساسة أو قضايا قومية أو إقليمية أو حتى قضايا عالمية. فقد كانت أنظمة الحكم تفرض رقابة صارمة على الإعلام عامة والإعلام المسموع والمرئى خاصة ليظل مجرد أداة دعاية لشخص الحاكم. وكانت الأخبار تُمنع أو تُحَرّف إذا كانت بها شبهة نقد. أما البرامج السياسية فتستضيف الشخصيات التى تفسر كل شىء بالطريقة التى تمجّدالحاكم وتُسبِّغ عليه كل الصفات النبيلة. ولا يسمح للشخصيات التى لا تؤيد نظام الحكم تأييدًا مطلقًا بالظهور فى هذه البرامج مهما بلغت المنزلة العلمية والثقافية لهذه الشخصيات. وقد يحاول البعض القول إن لبنان كانت استثناءً من هذه القاعدة بمنطق أن القنوات التلفزيونية بها والصحف كانت مملوكة لأفراد، وأن القانون فى لبنان يمنح

وسائل الإعلام حرية كاملة. غير أن النظرة الفاحصة لا تستثنى وسائل الإعلام اللبنانية من التبعية لأنظمة الحكم العربية التى تهيمن على النسبة الأكبر من الإعلام اللبنانى، بما تنفقه من الأموال بسخاء لدعم هذا الإعلام اللبنانى، وقد أشرت إلى هذا فى الحديث عن الحروب الإعلامية العربية العربية.

الفراغ الإعلامى :

وشعر المواطن العربى بفراغ إعلامى لسنوات طويلة فيما يتعلق بالأخبار، وكان هذا الفراغ الإعلامى هو المناخ الملائم الذى يسمح لأى وسيلة إعلامية تتمتع بقدر مناسب من الحرية والاستقلال أن تملأه، وأن تجذب الجماهير العربية العريضة التى تتوق إلى إعلام يقدم لها أكبر قدر من الأخبار المحجوبة عنها، ويقدم لها الموضوعات السياسية بقدر معقول من الموضوعية.

ولا أعنى بهذا الفراغ الإعلامى أن هذا الفراغ كان يشمل جميع المواد التى يقدمها الإعلام العربى. فقد كانت وسائل الإعلام العربية عامرة بالكثير من المواد الترفيهية والخدمية والثقافية، إلى حد ما، وبعض هذه المواد كان يقدم بمستوى فنى جيد.

قنوات الأخبار :

لا ينكر منصف أن الفضائيات المتخصصة فى الأخبار والبرامج السياسية هى القنوات التى أحدثت زلزالًا هائلًا فى جميع البلاد العربية، وأنها سلطت أضواء كاشفة على الكثير من المناطق التى حرصت أنظمة الحكم أن تبقيها خلف ستائر كثيفة من التعتيم الإعلامى.

وقد أحدثت هذه القنوات بدرجات متفاوتة موجات من التحركات الشعبية التى أتاحت لها هذه القنوات الفرصة لمعرفة الكثير من المعلومات والأخبار المحجوبة عنها، والتى تكشف عن سياسات أنظمة الحكم العربية التى ساهمت

(١) من الشواهد المهمة على أشواق الجماهير العربية لمتابعة إعلام يقدم لها حقائق تحجبها الحكومات العربية الإقبال الواسع لمتابعة قناة «CNN» الأمريكية، وهى تبث وقائع حرب تحرير الكويت. ورغم حاجز اللغة الذى لا يسمح لكثير بالمتابعة الدقيقة فقد كانت نسبة مشاهدة هذه القناة خلال هذه الحرب نسبة عالية للغاية.

فى تردى الأوضاع بالبلاد العربية سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، وفى انتشار الفساد بدرجة بشعة. وكان طبيعيًا نتيجة لما تبنته هذه الفضائيات من التصدى لهذه القضايا أن تشهد البلادالعربية موجات من التحركات الجماهيرية بدرجات متفاوتة تنادى بالتصدى لكل مظاهر الفساد المالى والسياسى. وكان لقنوات الأخبار الفضل فى هذا التحرك الذى أخذ يتصاعد باستمرار حتى بلغ درجة أفزعت أنظمة الحكم فت،حركت وبوسائل شتى لمحاصرة الحرية التى مكنت هذه القنوات من نيل ثقة الجماهير.

وأظن أن كثيرين يتفقون معى فى أن هذا التأثير الهائل لقنوات الأخبار يحتاج لوقفة مفصّلة، نتعرف فيها على ما أحدثته هذه القنوات من تأثيرات على الجماهير العربية.

والبداية الطبيعية فى تصورى تضع «قناة الجزيرة» فى مقدمة هذه القنوات. ولا تعنى البداية بالجزيرة أى تفضيل لها بل تفرض هذه البداية حقيقة سَبْقِ قناة الجزيرة فى الظهور كقناة متخصصة فى الأخبار والشئون السياسية. مما اعتبره كثيرون البداية الحقيقية لظهور هذه القنوات، وأنها ـ أى القنوات التى ظهرت بعدها ـ كانت محاولات لمنافسة «الجزيرة» بعد أن ظهر جليًا إقبال الجماهير الواسعة على هذه النوعية من القنوات.

قناة الجزيرة

قناة الجزيرة ظاهرة فى الإعلام العربى، وقد أحدث انطلاقها تحولاً مهمًا فى النشاط الإعلامى العربى، لا يمكن لمنصف أن ينكره حتى وإن خالف الجزيرة فى توجهاتها.

وتحتاج الجزيرة إلى وقفة نتناول فيها الظروف الموضوعية التى سمحت لقناة الجزيرة بالانطلاق واقتحام موضوعات كانت قبل أن تتعرض لها الجزيرة من المحرمات التى لا يقترب منها الإعلام العربى.

(١) معرفة توجهات قناة «الجزيرة» وأهدافها تحتاج لمعرفة توجهات وأهداف الرجل الذى أطلقها ووفر لها التكاليف الماليه، والأهم الرعاية والحماية السياسية. وهذا الرجل هو الشيخ حمد بن جاسم بن جبر آل ثانى، وكان يشغل آنذاك منصب وزير الخارجية ويشغل حاليًا منصب رئيس وزراء قطر.

لماذا قطر؟

ولدت فكرة إطلاق قناة فضائية تليزيونية تتمتع بأعلى سقف ممكن من الحرية فى ذهن الشيخ حمد بن جاسم بن جبر آل ثانى[1] ، وهو يشغل منصب وزير خارجية قطر فى عهد الأمير الحالى الشيخ حمد بن خليفة. وكان الشيخ حمد بن جاسم بن جبر آل ثانى الشاب القطرى الذى تلقى تعليمًا متميزًا، وينتمى إلى أحد فروع الأسرة الحاكمة، كان يرى أن دولة قطر تستحق أن يكون لها مكانة معقولة فى محيطها الخليجى بل وفى المنطقة العربية كلها.

وهو يدرك أن هذه الأحلام والطموحات لا يمكن أن تتحقق فى ظل الظروف الموضوعية. فدولة قطر لا تملك من الثروات الطبيعية ما يمكّنها من استخدام هذه الثروة لكسب نفوذ معقول فى منطقة الخليج، وبطبيعة الحال فيما يتجاوز الخليج، فالعديد من دول المنطقة التى حققت هذا النفوذ تملك من الثروات الطبعية خاصة البترول ما يحقق لها فائضًا ماليًا هائلًا تستطيع أن تستخدمه لكسب النفوذ فى المنطقة. كما أن قطر إمارة صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها الأصليين المليون نسمة فضلًا عن وجود نزاعات حددوية مع جارتيها البحرين والسعودية. وهذه النزاعات تضغط بقوة على قطر، خاصة عندما تتحول هذه النزاعات إلى صراع مسلح لا تمتلك قطر القوة العسكرية أو الدبلوماسية التى تمكنها من الانتصار أو حتى مجرد الصمود فى مثل هذا الصراع. وكان الشيخ خليفة آل ثانى الأمير السابق يعى جيدًا هذه الحقائق، ولهذا حرص طوال فترة حكمه على أن يُجنِّب قطر التورط فى أى صراعات عربية ـ عربية، وحاول أن ينتهج سياسة محافظة، لإبقاء قطر معنيّة فقط بتحقيق مستوى معقول من المعيشة لسكانها دون التطلع لأبعد من ذلك، وأن تكتفى عربيًا بعلاقات طيبة مع جميع الدول العربية مبتعدة بنفسها عن التورط فى أى نزاعات عربية عربية. وأيضًا مبتعدة عن أى طموح لتجاوز دور الدولة الصغيرة التى لا تطمح فى لعب دور موثر فى محيطها القريب « الخليج » ، أو محيطها الأوسع «البلاد العربية».

وعندما تمت الإطاحة بالشيخ خليفة وتولى نجله الشيخ حمد بن خليفة إمارة قطر، كان الشخ حمد بن جاسم بن جبر آل ثانى ـ مهندس هذا التغيير ـ قد وصل إلى موقع الرجل الأقوى فى هذه الإمارة متجاوزًا حدود منصب وزير الخارجية الذى يشغله. وللرجل أحلام وطموحات لنقل إمارة قطر من منطقة الهوامش التى تقبع فيها العديد من الدول والإمارات العربية الخليجية إلى المنطقة التى تشغلها الدول العربية، التى تملك القدرة على التأثير فى القرارات العربية.

أما كيف يتمكن الشيخ حمد بن جاسم بن جبر من تحقيق أحلامه فى ظل هذه الظروف الموضوعية غير المواتية، فقد تكفلت الظروف الدولية والإقليمية فى هذه الفترة بتقديم الحل السحرى لهذه الاشكالية لتفتح الطريق أمام الشيخ حمد بن جاسم لتحقيق طموحاته بأكثر مما توقع.

الحل .. قاعدة أمريكية.. وإعلام قطرى قوى :

نحتاج هنا لوقفة نلقى فيها نظرة فاحصة على الظروف الدولية والإقليمية وهى ظروف فى تقديرى قدمت لكل من قطر والولايات المتحدة الأمريكية فرصة لعقد صفقة تسمح لكل منهما أن يحقق أهدافًا مهمة.

على الجانب الأمريكى كانت الإدارة الأمريكية قد بدأت فى اتخاذ الخطوات العملية لتحقيق مخططاتها للسيطرة بقوة على المواقع الإستراتيجية فى منطقة الشرق الأوسط، خاصة الجبهة الشرقية لتحقيق أكثر من هدف.

الأول: السيطرة الكاملة على المناطق التى تحتوى على نسبة هائلة من مخزون البترول والغاز الطبيعى فى العالم، وهى دول الخليج كالسعودية والكويت وقطر والعراق والجمهوريات التى استقلت بعد انهيار الاتحاد السوفييتى.

الثانى: السيطرة على مناطق وسط آسيا، هذه السيطرة التى تسمح لأمريكا بأن تراقب عن كثب القوة النامية للهند التى تخطو تجاه منطقة الدول الكبرى، والصين التى تنطلق كعملاق دولى تناطح الدول العظمى. وروسيا التى بدأت تفيق من صدمة انهيار الاتحاد السوفييتى وتسترد عافيتها كدولة عظمى.

وهذه القوى كلها تهدد انفراد أمريكا بموقع القطب الأوحد عالميًا. ولهذا فإن وجودًا أمريكيًا عسكريًا قويًا على مقربة من هذه القوى يصبح ضرورة إستراتيچية أمريكية.

الثالث: إحكام الطوق لحصار إيران التى أصبحت منذ الإطاحة بالشاه ـ صديق أمريكا ـ بؤرة تسبب قلقًا بالغًا للإدارة الأمريكية، أولًا بامتلاكها ـ أى إيران ـ لقوة عسكرية متنامية تُطِلّ مباشرة وعلى مرمى البصر على مناطق إنتاج البترول بالبلاد العربية على الشاطئ المقابل من الخليج وثانيًا: بإعلانها الصريح عن سياسات معادية لإسرائيل الحليف الاستراتيچى لأمريكا وأيضًا مناهضتها علنًا للسياسات الأمريكية فى المنطقة، سواء فى البلاد العربية مثل العراق أو الدول الإسلامية الواقعة فى وسط آسيا، مثل أفغانستان والدول الإسلامية التى استقلت بعد انهيار الاتحاد السوفييتى.

ولأن الخطط الأمريكية تهدف إلى السيطرة المباشرة والقوية على المواقع الإستراتيچية بهذه المنطقة فإن احتمال استخدام القوة العسكرية الأمريكية يظل أمرًا غير مستبعد، ويجب أن توضع الخطط العملية التى تسمح عند الضرورة باستخدام هذه القوة العسكرية بدرجة عالية من الكفاءة. هذه الأهداف والخطط الأمريكية أصبحت أمرا يفرض نفسه بقوة على الإدارة الأمريكية. واستخدام قوة عسكرية كثيفة وقادرة من القوات المتمركزة عل بعد آلاف الأميال فى القواعد العسكرية الأمريكية الرئيسية فى أمريكا أو جنوب شرق آسيا أو أوربا لا يفى بالغرض تمامًا. ولهذا فقد بحث العسكريون الأمريكيون عن أنسب المواقع لإنشاء قاعدة عسكرية أمريكية ضخمة فى قلب هذه المنطقة.

السعودية:

استبعد العسكريون الأمريكيون القواعد الأمريكية فى المملكة العربية السعودية من أداء هذا الدور لأن السعودية لا ترغب فى التورط علنًا فى استخدام أراضيها لشن هجمات عسكرية على بلاد عربية أو إسلامية، مما يسبب حرجًا بالغًا للنظام السعودى الذى يبنى شرعيته على أنه يحمى الأماكن

الإسلامية المقدسة، وأنه يناصر المسلمين فى كل مكان، وأنه أيضًا المدافع عن العرب والمسلمين. ولهذا تم استبعاد القواعد الأمريكية فى السعودية كقاعدة أساسية قادرة على تحقيق الدور الخطير الذى يفترض أن تقوم به قاعدة عسكرية أمريكية تتمتع بكفاءة وحرية حركة وقدرة تماثل أكبر القواعد العسكرية على الأراضى الأمريكية. وتبقى القواعد العسكرية الأمريكية فى السعودية مجرد قواعد معاونة تساند بشكل غير علنى القاعدة الأكبر المزمع إنشاؤها.

تركيا:

نفس الموقف ينطبق على القواعد العسكرية الأمريكية فى تركيا، خاصة التوجهات الجديدة للحكومات التركية التى ولت وجهها شطر البلاد العربية والإسلامية بعد أن وضع الأتراك العديد من القيود التى تقلل إلى درجة كبيرة من حرية أمريكا فى استخدام هذه القواعد.

دولة الإمارات العربية المتحدة:

تم استبعاد دولة الإمارات العربية المتحدة رغم، صداقتها لأمريكا، لأنها - أى الإمارات - تنتهج سياسات عربية تتعارض نسبيا فى كثير من الأحيان مع السياسات والأطماع الأمريكية، وهى ظروف لا تسمح باستخدام أراضى الإمارات لشن هجمات عسكرية على أى بلد عربى وإسلامى.

سلطنة عمان:

أما سلطنة عمان فلا تصلح هى الأخرى رغم صداقتها لأمريكا، لأن موقف السلطان قابوس له نفس التحفظات المشابهة لتحفظات السعودية. كما أن السلطان قابوس يأخذ فى اعتباره موقف إيران القوى الذى يتحكم فى مضيق هرمز.

الكويت:

تبقى الكويت التى تدين بالعرفان لأمريكا، لأنها طردت قوات صدام حسين التى احتلت الكويت، وقد سمحت الكويت بإقامة قواعد عسكرية أمريكية على أراضيها. واستبعدت الدراسات الكويت أيضًا رغم هذه الصداقة والعلاقة

المتميزة، لأن الكويت تتمتع بقدر من الحكم الديمقراطى الذى يسمح لقوى إسلامية وأيضًا قوى قومية عربية باحتلال مقاعد بعدد لا بأس به فى البرلمان الكويتى القوى الذى يملك تقييد حركة الحكومات. ومن هنا فإن القواعد العسكرية الأمريكية فى الكويت تظل أيضًا مقيدة الحركة نسبيًا.

البحرين:

أما البحرين فرغم أنها تسمح باستخدام موانيها لإيواء سفن الأساطيل الأمريكية ، إلا أنها لا تستطيع أن تسمح بإقامة قواعد برية ضخمة على أراضيها، سواء للظروف الجغرافية أو الظروف السياسية التى تجعل البحرين تتحسب بدرجة كبيرة لمواقف إيران، ولا ترغب فى تقديم مبررات تستفز إيران التى تملك نفوذًا قويًا داخل البحرين من خلال نسبة الشيعة الكبيرة، ومن خلال الوضع الجغرافى المتداخل مع الأراضى الإيرانية.

وهنا تبرز قطر كأنسب موقع لإقامة هذه القاعدة العسكرية الضخمة، والتى يمكن أن تعتمد عليها أمريكا اعتمادًا كبيرًا فى تنفيذ عملياتها العسكرية فى المناطق التى تقرر التدخل فيها عسكريًا.

الصفقة:

هذا عن أمريكا.. فماذا عن قطر؟ كان نظام الحكم الجديد فى قطر يبحث عن قوة تحميه من قوى تتربص به، سواء تمثلت هذه القوة فى الأمير المخلوع الشيخ خليفةً وأبنائه الذين آزروه وخرجوا معه أو كانت قوى جيران ينازعون قطر على أراضى حدودية. وفى مقدمتهم السعودية والبحرين.

وكانت أمريكا تدرك جيدًا هذه الظروف، فتحركت لعقد صفقة تحقق لكل من الطرفين أهدافه. فأمريكا تقيم قاعدتها العسكرية الأكبر على الأراضى القطرية مطمئنة إلى أنها ستملك الحرية الكاملة فى استخدام هذه القاعدة. والشيخ حمد بن جاسم الرجل القوى فى قطر[1] ومهندس الصفقة سيحصل

(١) يؤكد كثيرون أن الشيخ حمد بن جاسم بن جبر آل ثاني هو مهندس الانقلاب الذى جاء بالشيخ حمد بن خليفة آل ثانى إلى منصب أمير قطر ليحسم صراعاً بين أبناء الشيخ خليفة لصالح الشيخ حمد بن خليفة. وأنه ـ أى الشيخ حمد بن جاسم بن جبر آل ثانى ـ هو رجل قطر القوي الذى يتمتع بنفوذ يفوق المنصب الرسمى الذى يشغله.

على مظلة حماية أمريكية تردع أى قوة تحاول الدخول فى صراع مع النظام الجديد فى قطر. سواء فى موضوع النزاعات الحدودية مع الجيران أو محاولات الأمير المخلوع للعودة. وأقيمت القاعدة استنادًا إلى معاهدة دفاع مشترك بين قطر وأمريكا تسمح بنودها للطرف القطرى أى يقدم تبريرًا له شبهة من المنطق بادعاء أن استخدام هذه القاعدة فى العمليات العسكرية الأمريكية ضد الدول العربية أو الإسلامية يخضع لمعاهدة دفاع مشترك واجبة الاحترام تعطى لأمريكا حرية استخدام هذه القاعدة.

إسرائيل تدخل على الخط:

أدرك الإسرائيليون أن باستطاعتهم استغلال هذه الفرصة فطرحوا فكرة كسر المقاطعة العربية على قطر عبر وسطاء أفهموا المسئولين الجدد فى قطر أن كسر طوق المقاطعة العربية لإسرائيل سيمنح قطر فرصة كبيرة فى إتمام الصفقة، لأن إسرائيل سوف تستخدم نفوذها القوى لدى الإدارة الأمريكية لدعم مطالب قطر وتوفير الحماية والدعم الذى تحتاجة قطر فى كل المجالات. ويبدو أن إسرائيل تمكنت من استغلال الفرصة بنجاح[1].

التفكير فى امتلاك القوة الإعلامية:

بعد أن اطمأن نظام الحكم القطرى ـ خاصة رجله الأقوى الشيخ حمد بن جاسم بن جبر ال ثانى ـ إلى أن الحماية الأمريكية تضمن له ردع أى قوة تفكر فى العدوان على قطر أو إعادة الأمير المخلوع، بدأ الرجل فى التفكير جديًا فى امتلاك الأدوات التى يرى أنها كفيلة بتحقيق هدفه بنقل دويلة قطر من منطقة الهوامش عربيًا وإقليميًا إلى منطقة الدول التى يصعب تجاهل رأيها وموقفها.

وكان امتلاك قوة إعلامية مؤثرة هو الهاجس الأكبر لدى الشيخ حمد بن جاسم باعتبارها القوة الأكثر والأسرع تأثيرًا فى الأنظمة والجماهير العربية.

(١) تصدى الشيخ حمد بن جاسم بن جبر آل ثانى لكسر طوق المقاطعة العربية لإسرائيل، فأعلن عن فتح مكتب «تجارى إسرائيلى» فى الدوحة يرفع عليه علم إسرائيل ويصبح رمزًا لكسر المقاطعة العربية لإسرائيل. ومارس المكتب الإسرائيلى نشاطه فى العاصمة القطرية رغم معارضة داخلية وعربية لم يعرها الشيخ حمد اهتمامًا وواصل اتصالاته بالإسرائيليين وفتح الباب للمسئولين الإسرائيليين للقيام بزيارات رسمية إلى الدوحة.

وهى القوة التى تفوق بعض القوى الأخرى القادرة على تحقيق هذه النقلة، وهى القوة المالية والعسكرية.

وهذا التوجه أراه توجهًا سليمًا، فالساحة العربية تعانى فراغًا إعلاميًا، رغم إصدار مئات الصحف وإطلاق مئات القنوات الإذاعية والتلفزيونية. فهذا الكم الهائل من وسائل الإعلام تسيطر عليه سيطرة تامة أنظمة الحكم العربية، التى لا تسمح لوسائل الإعلام هذه بقدر معقول من الحرية، لكنها تكبلها بقيود ثقيلة من الرقابة والخطوط الحمراء.

هذا الفراغ الإعلامى لو تقدم من يملك الشجاعة لملئه بإطلاق فضائية تتمتع بدرجة عالية من الحرية، فسوف يتمكن من جذب الملايين من المشاهدين فى جميع البلاد العربية، وسوف يكسر أسوار العزلة الإعلامية التى تفرضها أنظمة الحكم العربية على شعوبها. والنتيجة الطبيعية فى هذه الحالة أن تدرك الأنظمة العربية مدى النفوذ الجماهيرى لهذه القناة فتضع فى حسابها موقف الدولة التى تطلقها. وأعتقد أن التعبير الذى شاع استخدامه فى الساحة الإعلامية والسياسية خاصة من جانب منتقدى قناة «الجزيرة»، هذا التعبير الذى يقول : «إن قناة فضائية خلقت دولة» يمكن أن يكون مُعبّرًا بدرجة ما عن الواقع الذى فرضته قناة «الجزيرة».

فكرة الجزيرة :

شاءت الظروف أن أكون شاهدًا على ميلاد فكرة إطلاق قناة الجزيرة، وأن أسمع من صاحب الفكرة مباشرة تصوره لإطلاق هذه القناة. فقد كنت فى الدوحة لمباشرة بعض أعمالى[1] ، وبعد أن انتهيت من إنجاز هذه الأعمال وحددت موعدًا للعودة إلى القاهرة فى نهاية الأسبوع، اتصل بى الأستاذ «أحمد الحُمر» مدير الوكالة الوطنية القطرية للأنباء ليطلب منى تأجيل العودة إلى

(١) فى هذه الفترة كنت أقوم بإنتاج أعمال إذاعية وتلفزيونية لإذاعات وتلفزيونات عدد من دول الخليج، ومن بينها إذاعة وتلفزيون دولة قطر. وامتد هذا التعامل لسنوات طويلة منذ بدايات السبعينيات من القرن العشرين. وكانت لى صلة أيضًا بجامعة قطر، فقد توليت تدريس مادة الإعلام بهذه الجامعة كأستاذ زائر لمدة ثلاث سنوات، كما كنت أكتب مقالاً أسبوعيًا فى جريدتين قطريتين، هما : الشرق ثم الراية.

القاهرة؛ لأن الشيخ حمد بن جاسم بن جبر آل ثانى وزير خارجية قطر يرغب فى مقابلتى لأمر مهم. طلبت من الأستاذ أحمد أن يتم اللقاء الخميس أو الجمعة، فأكد لى أن الشيخ حمد بن جاسم مرتبط مسبقًا بمواعيد مهمة خاصة بولى عهد اليابان الذى يزور الدوحة فى إطار التعاون القطرى اليابانى فى مشروعات تسييل الغاز الطبيعى.

وفى الموعد المحدد ذهبت إلى وزارة الخارجية القطرية فى صحبة الأستاذ «أحمد الحُمرُ»، واستقبلنا الشيخ حمد بن جاسم فى مكتبه بحضور المدير الصحفى لمكتبه الأستاذ أحمد على. وكان استقبال الشيخ حمد بن جاسم متدفقًا بمشاعر الود، وكان الرجل يتحدث بعبارات صريحة بل صادمة أحيانًا بعيدًا تمامًا عن العبارات الدبلوماسية أو العبارات الإنشائية المطاطة. وفى لحظات قليلة ساد جو من الألفة انطلق فيها كلٌّ منا بالحديث عن سجيته، فالرجل يشعرك بعد لحظات قليلة أنك صديق قديم.

تطرق الحديث إلى موضوعات كثيرة أول الأمر، وكنت أسمع لرأى الشيخ حمد بن جاسم، وكأننى أسمع رأى بعض المثقفين العرب، الرافضين لكل مظاهر الضعف والتخلف العربى. وأدركت أن الموضوع المهم هو موضوع الإعلام عندما تطرق إلى معاناة قطر من تحيّز الإعلام العربى ضد قطر فى حادثة الاجتياح العسكرى السعودى لمخفر الخفوس القطرى(١). وتحدث الرجل عن أهمية الإعلام فى هذا العصر، وكيف أن الإعلام يمكن أن يحرّك الرأى العام، وأن يوجه الجماهير الوجهة التى يريدها إذا قدم مواده ببراعة واستطاع أن يكسب ثقة الجماهير العريضة. وبعد الحديث تفصيلًا عن هذا الموضوع من الناحية النظرية، قال الشيخ حمد بن جاسم: إنه يرغب فى إطلاق قناة فضائية تلفزيونية، وعندما اقترحت عليه تطوير قنوات قطر التلفزيونية الرسمية

(١) اجتاحت القوات المسلحة السعودية مخفر الخفوس القطرى على الحدود الفاصلة بين الدولتين، واستطاعت السعودية أن تفرض وجهة نظرها عملياً على الأرض بالقوة المسلحة وأدبياً باستخدام آلتها الإعلامية الضخمة ونفوذها فى مؤسسات إعلامية عربية كثيرة. وكان لهذا الحادث أثره فى لفت انتباه الشيخ حمد بن جاسم بن جبر إلى أهمية التأثير الإعلامى.

وإطلاقها على قنوات فضائية، اعترض مؤكدًا أن أى تطوير لقنوات رسمية لن يحقق هدفه، فالرجل يريد قناة تلفزيونية فضائية مستقلة استقلالًا حقيقيًا عن الحكومة القطرية ـ حسب قوله ـ ويسألنى المشورة كيف يمكن إنشاء مثل هذه القناة؟ أجبت الشيخ حمد بن جاسم بأننى أطلب منه أولًا الإجابة عن سؤال أو اثنين بكل صراحة. وأبدى الرجل الاستعداد للإجابة بصراحة تامة سألته، إلى أى مدى يمكن أن تتمتع هذه القناة بالحرية والاستقلال والالتزام بالقواعد والمعايير المهنية والعلمية.

أجاب الرجل: أريد قناة حرة تمامًا وبغير أى قيود أو رقابة أو خطوط حمراء. وأن تلتزم فقط بالمعايير المهنية المحترمة للإعلام. وعدت لأسأله: وماذا عن موقفها من نظام الحكم فى قطر؟ قاطعنى الرجل مؤكدًا أن الحرية التى يتحدث عنها لا تتجزأ، وأن هذه القناة يريدها أن تتعامل بحرية كاملة مع كل ما هو قطرى كما تتعامل مع أى قضية فى أى بلد عربى.

وأجبته، إذًا ابدأ فورًا فى تركيب التجهيزات الهندسية، وتخيّر بعض الكوادر الإعلامية المؤهلة مهنيًا بشكل متميز، وابدأ البث، وأضمن لك النجاح مائة بالمائة.

وطلب الرجل منى أن أقدم دراسة تفصيلية فوعدته بأن أفكر فى الموضوع، وأضفت إن الأمر لا يحتاج لدراسات إذا صحت عزيمته فعلًا فى إطلاق قناة مستقلة استقلالًا حقيقيًا وتتمتع بالحرية الكاملة كما وعد، مؤكدًا له أن «الحرية» هى المفتاح السحرى لنجاح أى مؤسسة إعلامية خاصة فى بلادنا العربية التى يحاصر حكامها بعنف الحرية الإعلامية.

وانتهى اللقاء، وغادرت مكتب الشيخ حمد بن جاسم وفى رأسى سؤال يلح علىّ: هل يمكن فعلًا أن تُطلق فضائية تلفزيونية عربية لتتعرض لكل القضايا العربية الحساسة بحرية كاملة؟ وكانت الإجابة عن هذا السؤال بمقدار ما أعرفه عن الأنظمة بالعربية وعن موقف هذه الأنظمة من الإعلام، هذا الموقف الرافض تمامًا لمنح الإعلام أى حرية حقيقية واعتباره مجرد أداة دعاية لشخص

الحاكم، كانت هذه الحقيقة ترجّح أن يكون حديث وزير الخارجية القطرى مجرد تمنيات طيبة وأحلام يصعب تحقيقها على أرض الواقع.

غير أن شعورًا بالثقة فى صدق الرجل وهو يتحدث بعفوية وصراحة وبعبارات غير مألوفة فى أحاديث المسئولين العرب، كان يرجّح إمكانية تحقيق هذا الحلم.

وتأرجح موقفى بين شك وأمل فى تحقيق مثل هذا الحلم الذى يُسعد كل مهتم بأمور الإعلام. ولم أتحمس لكتابة الدراسة التفصيلية التى طلبها الشيخ حمد بن جاسم[1].

الفرصة الذهبية .. وبداية البث :

بعد هذا اللقاء ببضع شهور وقعت مشكلة بين هيئة الإذاعة البريطانية الـ «BBC» وشبكة قنوات «أوربت» السعودية، كانت الـ «BBC» تقدم فترة باللغة العربية على قنوات «أوربت» بموجب عقد تتضمن بنوده بث مواد الـ «BBC» بحرية كاملة دون تدخل من إدارة «أوربت». ونشب خلاف انتهى بقرار وقف البث الـ «BBC» باللغة العربية على قنوات «أوربت»[2].

وهنا وجد عدد كبير من العاملين بهذا البرنامج أنفسهم بغير عمل. وفى تلك الأيام كان الشيخ حمد بن جاسم بن جبر آل ثانى قد بدأ بعض الخطوات العملية لإنشاء القناة الفضائية المستقلة التى يحلم بها. ووجد الرجل أنه أمام كنز من الكوادر المدربة جيدًا فى أحد أهم المؤسسات الإعلامية وهى هيئة الإذاعة البريطانية، وهذه الكوادر جاهزة للتعاقد مع أى مؤسسة إعلامية تقدم لها عروضًا معقولة للعمل. وبالفعل تم الاتصال بهذه المجموعة وقَبِلَ عدد كبير منهم التعاقد للعمل بالقناة الوليدة التى أطلق عليها اسم «الجزيرة».

وبدأت الخطوات العملية لإطلاق هذه الفضائية تتسارع، فتم بناء «هنجر»

(١) وانقطعت صلتى بهذا الأمر بعد هذا اللقاء، إلى أن عرفت كغيرى أن قناة فضائية قطرية اسمها «الجزيرة» قد انطلقت وأنها تخاطب المشاهدين بحرية لم نعهدها فى أى إعلام عربى من قبل.

(٢) هذا الحدث ورد بشكل مفصل فى الفصل الأول، وفى الصفحات الخاصة بقنوات «أوربت».

فى أرض فضاء بجوار مبنى الإذاعة والتلفزيون القطرى، وكان الاهتمام الأكبر بتوفير أحدث ما توصلت إليه التكنولوچيا فى مجال التسجيل والمونتاچ والبث، والأهم هو تشكيل شبكة من المراسلين تغطى أهم مناطق الأحداث الساخنة فى العالم، وتم اختيار المراسلين من العناصر التى تتمتع بكفاءة مهنية ممتازة، وحرصت إدارة «الجزيرة» على توفير أحدث وسائل الاتصال التى تمكّن شبكة المراسلين هذه من البث المباشر وبوضوح من أى موقع يشهد أحداثًا مهمة.

ولم تمضِ سوى بضعة شهور حتى كانت قناة «الجزيرة» قد استكملت المقومات البشرية والهندسية التى تمكنها من البث. وكان الفريق الذى تم التعاقد معه قد سجل بالفعل العديد من البرامج التى سوف تُبث فى الأيام الأولى. واستغل العاملون بالقناة فترة الانتهاء من التجهيزات الهندسية لوضع خريطة البرامج اعتمادًا على دراسة جيدة لمواعيد البث المناسبة لعادات المشاهدة فى جميع البلاد العربية وفى أوربا وأمريكا، حيث توجد تجمعات كبيرة للجاليات العربية المهاجرة. والتى استندت إلى خبرتهم السابقة فى العمل ببرنامج الـ «BBC» العربى على قناة «أوربت».

بدء البث:

لاحظ من التقط بث قناة «الجزيرة» منذ اليوم الأول أن هذه القناة تقتحم الكثير من المحاذير والمُحَرّمات التى لا تقترب منها القنوات التلفزيونية العربية، الأرضية منها والفضائية على السواء. وبدأ المثقفون العرب يتناقلون ما تبثه الجزيرة من أخبار وتعليقات وبقيت نوعية المشاهدين طوال عدة شهور قاصرة على المثقفين المهتمين بالنشاط السياسى .

وبدأت دائرة المشاهدين للقناة تتسع بسرعة وتناقل المشاهدون الكثير من الأخبار التى تنفرد «الجزيرة» ببثها خاصة تلك التى تتعلق بموضوعات لا يقرؤها أو يسمعها أو يشاهدها المواطنون العرب فى الإعلام الرسمى ببلادهم، وجذبت هذه الأخبار والموضوعات ملايين المشاهدين العرب المحرومين من التدفق الحر للأخبار.

الحرب الأفغانية:

وكان الغزو الأمريكى لأفغانستان النقلة الكبرى التى قفزت بها «الجزيرة» إلى القمة بين جميع القنوات العربية وغير العربية. فقد أُتيحت لقناة «الجزيرة» فرصة لم تُتح لغيرها، وهى سماح طالبان للجزيرة بأن تتحرك بحرية وأن تغطى أخبار القتال من ميادينه، وأن تنفرد ببث الكثير من تصريحات القادة الميدانيين والقيادات السياسية. واقتنصت «الجزيرة» هذه الفرصة وتعاملت معها بدرجة عالية من الأداء المهنى المتميز سواء بتوفير مختلف وسائل البث والاتصال التى تمكنها من مواصلة البث فى أصعب الظروف ومن أكثر المواقع صعوبة، أو باختيار أطقم عمل ممتازة من المراسلين القادرين على تقديم بث مباشر من ميادين القتال وفى ظل ظروف بالغة الخطورة.

وتابع المشاهدون العرب هذه التغطية المتميزة وفى أذهانهم صور التغطية الأخبارية التى تابعوها بانبهار على شاشات قناة الـ "CNN" من الميدان خلال حرب أمريكا وحلفائها ضد قوات صدام حسين التى احتلت الكويت، فيما عرف بحرب الخليج الثانية أو حرب تحرير الكويت. وكانت تغطية الـ CNN هذه مثار إعجاب بل وانبهار المشاهدين العرب، الذين تعوّدوا أن يتابعوا إعلامًا عربيًا معلّبًا فاقدًا للحيوية التى يضفيها على الخبر البث المباشر من مواقع الأحداث الساخنة.

وسنحت الفرصة بحرب أفغانستان لتقدم قناة «الجزيرة» نموذجًا عربيًا متميزًا لهذا البث المباشر. وإذا كان حاجز اللغة قد حرم قطاعات كبيرة من المشاهدين العرب من المتابعة الجيدة لبث الـ CNN إبّان حرب الخليج الثانية، فقد كان بث «الجزيرة» بالعربية فرصة لإضافة الملايين من الجماهير العربية إلى المشاهدين المهتمين بمتابعة الأحداث الساخنة، خاصة فى البلاد العربية أو الإسلامية. كما أن تغطية أحداث القتال من منظور عربى ساهمت فى جذب الملايين من المشاهدين المتعاطفين مع شعب أفغانستان المسلم.

وحققت هذه القفزة مكاسب عديدة لقناة «الجزيرة» ، فقد أسقطت اعتقاداً استقر لسنوات طويلة بأن «الإعلام الغربى» هو المصدر الرئيسى الذى تعتمد عليه جميع وسائل الإعلام فى البلاد النامية بما فيها طبعًا البلاد العربية. وقدمت الجزيرة بهذه التغطية لحرب أفغانستان ، قدمت نفسها «كمصدر «رئيسى» بل ومصدر «وحيد» فى بعض الحالات لأخبار هذه الحرب. ونقلت وكالات الأنباء الغربية والقنوات الأوربية والأمريكية الكثير من أخبار هذه الحرب عن قناة «الجزيرة»، مما اعتبره خبراء الإعلام كسبا أدبيا ومهنيا كبيرا لقناة عربية هى قناة «الجزيرة».

وتكرر المشهد فى الغزو الأمريكى للعراق ، وإن كانت الفرصة هذه المرة أقل بكثير من الفرصة التى أتيحت «للجزيرة» فى حرب أفغانستان. فقد كانت أكثرمن قناة عربية وأجنبية تتنافس للتغطية المباشرة لهذه الحرب، وكانت فرصها جميعا متكافأة ، وفقدت «الجزيرة» الميزة الكبرى التى حصلت عليها بالاستئثار وحدها تقريبًا بالتغطية المباشرة من ميدان المعارك فى أفغانستان.

بل إن «الجزيرة» واجهت مشاكل مع وزراة الإعلام العراقية قبل سقوط نظام الرئيس العراقى صدام حسين ،عندما غضب وزير الإعلام يومها من تغطية «الجزيرة» للأحداث بتقديم وجهات النظر المختلفة وأُغلقت مكاتب «الجزيرة» بالعراق مما حرمها من تقديم خدمة بنفس الدرجة من التميز التى قدمت بها الخدمة الإعلامية إبّان حرب أفغانستان.

ومع ذلك فإن حرمان «الجزيرة» من العمل بحرية سواء قبل سقوط نظام صدام حسين أو بعد الاحتلال الأمريكى للعراق، هذا الحرمان لم يؤثر كثيرًا فى إقبال الجماهير على «الجزيرة» نتيجة للثقة التى كسبتها خلال حرب أفغانستان. بل إن منع «الجزيرة» من الحركة الحرة فى العراق كان له أثر إيجابى، إذ اعتبرت الجماهير أن هذا الموقف سواء من نظام صدام أو سلطات الاحتلال الأمريكى هو شهادة بأن «الجزيرة» تتحرى الحقيقة والموضوعية.

مزيد من الثقة :

توالت الأحداث الساخنة بالمنطقة من انتفاضة الأقصى إلى الحرب الإسرائيلية ضد حزب الله والمقاومة اللبنانية إلى الهجوم الإسرائيلى البشع على قطاع غزة. وفى كل هذه الأحداث كانت «الجزيرة» من أهم المصادر التى يثق المشاهد العربى فى أخبارها. لكنها فى هذه الأحداث لم تكن وحدها على الساحة فقد شاركها قنوات عربية أخرى استطاعت أن تكون منافسًا لا يستهان به مثل قناة «العربية» و«قناة أبو ظبى».

كما واجهت الجزيرة العديد من المشكلات مع أكثر من نظام حكم عربى ، ووصل الأمر ببعض هذه الأنظمة إلى إغلاق مكاتب «الجزيرة» ببلادها. وكانت «الجزيرة» تكسب فى كل مرة يتصاعد فيها الخلاف مع نظام حكم عربى ،كانت تكسب المزيد من التعاطف والثقة، لأن الجماهير العربية لا تثق كثيرًا فى أنظمة الحكم العربية، وبالتالى فإنها توجه ثقتها وتعاطفها مع كل من يختلف مع هذه الأنظمة.

الجزيرة « مباشر » :

أطلقت «الجزيرة» أكثر من قناة بعد قناتها الإخبارية. وأكثرها قنوات متخصصة مثل الجزيرة الوثائقية[1] ، والجزيرة الرياضية، والجزيرة الدولية، لكن ما يعنينى هنا هو قناة «الجزيرة مباشر» التى أراها ملحقًا لقناة «الجزيرة» الإخبارية. فهذه القناة تكمل الخدمة الإخبارية التى تقدمها الجزيرة الإخبارية. ففى قناة الجزيرة الاخبارية لايتسع الزمن المتاح لأى خبر لعرض تفاصيل تتجاوز بضع دقائق حتى لا تتأثر نشرات الأخبار بالتدفق السريع للأخبار الذى تقتضيه القواعد المهنية. وكثيرًا ما تتعلق بعض الأخبار بأحداث تستغرق تفاصيلها زمنا طويلا كمؤتمرات صحفية أو ندوات مهمة أو مظاهرات واعتصامات. ويتم الإشارة بخبر سريع إلى هذه الأخبار فى نشرات الأخبار بينما تنقل «الجزيرة مباشر» الحدث بكل تفاصيله على الهواء والذى قد

(١) سأتعرض تفصيلا لهذه القنوات عند الحديث عن القنوات المتخصصة غيرالإخبارية .

يستغرق ساعة أو أكثر . ومثل هذه التفاصيل يهتم بها قطاع لا بأس به من المشاهدين ، وتقديمها يعتبر خدمة مكمّلة للخبر الذى أذيع مختصرًا بنشرات الأخبار.

وقد ساهمت «الجزيرة مباشر» فى تقديم إضافة مهمة للمشاهد الذى يريد الاستزادة من المعلومات والتفاصيل حول الأخبار، وكثيرًا ما تقدم هذه التفاصيل معلومات ذات قيمة للمشاهد والمتخصصين الراغبين فى متابعة تفاصيل الأحداث.

كما تقدم «الجزيرة مباشر» خدمة بالغة الأهمية ـ فى تصورى ـ وهى طرح بعض القضايا العامة التى يهتم بها الرأى العام العربى لحوار مفتوح مع جماهير المشاهدين فى برنامج «منبر الجزيرة». ويطرح البرنامج «قضية ما» ثم يترك لجماهير المشاهدين الفرصة كاملة ليدلى كل مشاهد برأيه بحرية تامة فى القضية، وتتاح الفرصة للمشاهدين لشرح مفصّل لوجهة نظرهم.

ورغم أن هذا النمط من المشاركة الجماهيرية متاح فى برامج كثيرة وقنوات عديدة، إلا أن «تخصيص» برنامج وبمدة زمنية تمتد لتسمح لأكبر عدد من المشاهدين بالمشاركة فى الحوار، ولتعطى المشاهد مساحة زمنية كافية لعرض وجهة نظرة. هذا البرنامج مع غيره من البرامج فى القنوات الأخرى ساهم فى تدريب الكثير من المشاهدين على الالتزام النسبى بالموضوعية فى مناقشة القضايا المطروحة، ورسّخ لدى المشاهدين إحساسًا غاب طويلا بأن رأيهم له قيمة وأنهم يشاركون فى مناقشة القضايا العامة لأوطانهم.

أخطاء مهنية :

الزلزال الذى أحدثته «الجزيرة» على الساحة الإعلامية العربية يرجع إلى «سقف الحرية» المرتفع الذى أتيح لهذه القناة واقتحامها لقضايا كثيرة ظلت لعقود من القضايا التى لا يُسمح للإعلام العربى بالاقتراب منها، وفى مقدمتها القضايا التى تتعرض للمارسات السياسية والاقتصادية لأنظمة الحكم العربية وقضايا الفساد، التى تتورط فيها شخصيات تحتل مواقع قيادية عليا.

غير أن هذا الزلزال الذى اعتبره خبراء الإعلام نجاحًا ملموسًا لا يصح أن يحجب عن عيون المتابعين للجزيرة أخطاء مهنية، بعضها أخطاء جسيمة بالمعايير المهنية الإعلامية.

وهذه الأخطاء مسئولية مباشرة لعدد من مقدمى البرامج، غير أن هذه المسئولية المباشرة لا تعفى المسئولين عن رسم سياسة القناة من المسئولية، خاصة أن هذه الأخطاء المهنية كتب الكثيرون العديد من المقالات التى تكشف أبعادها وتعارضها مع القواعد المهنية[1].

نماذج صارخة:

النموذج الأكثر وضوحًا هو برنامج «الاتجاه المعاكس»، وفكرة البرنامج فكرة طُرقت آلاف المرات فى جميع وسائل الإعلام. والفكرة تعتمد على تقديم وجهتى نظر مختلفتين حول موضوع معين. والهدف هو إلقاء الضوء بالحوار الموضوعى الهادئ بين ضيفين يمثل كلٌّ منها وجهة نظر مختلفة حول نفس الموضوع، ليتاح للمشاهد رؤية الموضوع من زواياه المتعددة مما يتيح له ـ أى للمشاهد ـ الفرصة لتأمل الموضوع بهذه الرؤية الشاملة التى أتاحها له البرنامج عبر الحوار الموضوعى للضيوف، وبهذا يقدم البرنامج فرصة ممتازة للمشاهد لكى يُكَوّن رأيه الخاص فى الموضوع بدقة أكبر وبرؤية أوضح مما كانت متاحة له قبل أن يتابع وجهات النظر المختلفة التى عرضها الضيوف بموضوعية.

هذه الفكرة الممتازة والهدف الذى يساهم فى جلاء جوانب الموضوع أفسدها تمامًا مقدم البرنامج. فقد تحوّل البرنامج إلى ساحة «للردح» بين الضيوف يغذيها مقدم البرنامج بعبارات ومداخلات تثير ضيوفه وتحفزهم للمزيد من الشجار والصراخ. فمقدم البرنامج يختار ضيوفه من بين أكثر العناصر تعصبًا، والمشهود لهم باستخدام العبارات العنيفة والمتشنجة. ويدير مقدم البرنامج الحوار بأسلوب مسرحى يستثير طاقات الشجار ويحرّض على تصاعد نغمة

(١) كتب كثيرون نقدًا موضوعيًا لأداء قناة «الجزيرة» فى بعض المناسبات. ومن جانبى فقد كتبت العديد من المقالات التى تنتقد الأداء المهنى لعدد من برامج «الجزيرة» منذ السنوات الأولى لبثها، ونشرت هذه المقالات فى صحيفة الراية القطرية وفى عدد من الصحف المصرية.

التشنج. وينتهى البرنامج وقد ازداد الموضوع غموضًا، وتم التشويش بامتياز على المشاهد الذى انتقلت إليه حالة التعصب، ولم تتح له أية فرصة لرؤية الزوايا المختلفة للموضوع، فانحاز إلى أحد طرفى الشجار. وبدلاً من تقديم إضاءة تساهم فى رؤية أوضح للموضوع ، يقوم البرنامج بتكريس حالات التعصب المتشنج لدى المشاهدين ويضيف المزيد من التشويش على الموضوع.

وأعرف أن كثيرين سيجادلون بأن هذا البرنامج يجذب عددًا كبيرًا من المشاهدين وهذه حقيقة. غير أن كثافة المشاهدة لبرنامج لا يمكن اعتبارها معيارًا لنجاح البرنامج فى الالتزام بالمعايير المهنية. فكثيرا ما يلجأ مقدمو البرامج وفى كثير من الموضوعات إلى «الإثارة» بوسائل شتى ، ومن الطبيعى أن تكون الإثارة بالشجار والصياح وتبادل الاتهامات بل والسباب، من الطبيعى أن يجذب هذا الأسلوب المثير نوعية من المشاهدين من مستويات ثقافية متدنية ٠

وإذا أخذنا بمنطق كثافة المشاهدة فقط كمعيار لنجاح أى برنامج دون النظر إلى «نوعية» المشاهدة وتأثير البرنامج على المشاهد، فاننا بذلك نتجاهل تمامًا «رسالة الإعلام» والتقاليد المهنية المستقرة فى المؤسسات الإعلامية المحترمة. وفى مثل هذه الحالة سوف تحتل القنوات التى تقدم الإثارة الجنسية قمة النجاح .

أما برنامج «أكثر من رأى» فقد تكفّل مقدمه «سامى حداد» بإفساد الحوار الموضوعى، الذى يدور فى البرنامج بين ضيوف لديهم رؤى جديرة بالاحترام ، لكن السيد «سامى حداد» يلجأ فى كثير من الأحيان إلى مقاطعة الضيوف قبل أن يكملوا شرح وجهة نظرهم ليدلى برأيه الشخصى وهو التصرف الذى يتعارض مع الأسلوب المهنى السليم ، وكثيرًا ما يتعرض مقدم البرنامج فى مقاطعته للضيوف إلى أمور فرعية تقوده إلى الابتعاد عن «صلب الموضوع»، والذى يناقشه البرنامج مما يحرف الحوار بعيدا عن أصل الموضوع. ويكشف هذا الأسلوب عن حرص مقدم البرنامج على أن يوجه الحوار وجهة معينة تتناسب مع مواقفه وقناعاته الشخصية. ومثل هذا الأسلوب يتعارض تمامًا مع القواعد المهنية.

أما برنامج «بلا حدود» فيقع هو الآخر فى أخطاء لو تخلّص منها مقدم البرنامج لكانت له مكانة جيدة بين هذه النوعية من البرامج التى تحاور «المسئولين وصنّاع القرار» كما يقدم البرنامج نفسه. وللحق فإن مقدم البرنامج «أحمد منصور» يعدّ نفسه للحوار مع ضيوفه إعدادًا ممتازًا بجمع المعلومات الغزيرة التى تمكنه من إجراء حوار ممتع وموضوعى مع ضيوفه. لكن الخطأ أراه فى محاولات واضحة لتوجيه الحوار اتجاهًا يثبت به «أحمد منصور» خطأ سياسات لقادة أو أنظمة حكم يختلف «أحمد منصور» مع سياساتها وتوجهاتها الفكرية ، ويحرص على اصطياد أية معلومات ـ حتى وإن كانت غير موثوقة ـ لمهاجمة من يختلف مع سياساتهم. ويركّز بدرجة أكبر على الهجوم على «جمال عبد الناصر». كما يحرص عند تقديم الضيف على ذكر اتجاهاته الفكرية والسياسية خاصة إذا كان هذا الضيف يمثل اتجاها فكريًا مغايرًا لاتجاهاته ـ أى اتجاهات «أحمد منصور» ـ ويفعل ذلك بطريقة توحى بأن الضيف يقف فى موقف المتهم. ولو تخلى «أحمد منصور» عن الموقف المسبق من ضيوفه بمختلف انتماءاتهم لوصل ببرنامجه إلى درجة عالية من الإجادة.

ولا يتسع المجال لتقديم كل ما تقدمه «الجزيرة»، فقد توقفت أمام بعض ما تبثه القناة باعتبارها نماذج للالتزام أو عدم الالتزام بالمعايير المهنية. والسمة المشتركة فى تصورى التى تهبط بمستوى الأداء المهنى لعدد من برامج «الجزيرة» هى غلبة اتجاه فكرى معين. تتبناه القيادات المهنية بالقناة وتحاول أن تفرض هذا الاتجاه أو على الأقل تثبت أنه الاتجاه الأجدر بالاتباع وهو اتجاه يتبنى فكرا إسلاميا أقرب إلى فكر الإخوان المسلمين، وبالتحديد أقرب إلى فكر القيادات المحافظة بهذه الجماعة.

قناة العربية :

بدأت أنظمة الحكم العربية ممارسة ضغوط كبيرة على القيادة الساسية القطرية لتغيير أسلوب «الجزيرة»، خاصة فيما يتعلق بمناقشة قضايا تعتبرها هذه الأنظمة قضايا داخلية حساسة، أو استضافة رموز المعارضة لتهاجم

(١) يتم التعرض لموقف أنظمة الحكم العربية من الفضائيات فى فصل مستقل.

بشراسة سياسات هذه الأنظمة. وعندما فشلت كل محاولات الضغط سواء بالاتصالات الدبلوماسية أو بإغلاق مكاتب «الجزيرة» فى بعض العواصم ، فكرت بعض الأنظمة خاصة السعودية ومصر فى مواجهة «الجزيرة» بقنوات إخبارية تنافسها وتحاول جذب الجماهير بعيداً عن «الجزيرة».

وكانت السعودية الأسرع فى تنفيذ هذه الفكرة، فقامت مؤسسة الـ MBC بإطلاق قناة «العربية» ووفرت لها الإمكانات الهندسية والبشرية الهائلة التى تؤهلها لأن تكون منافسًا قويًا لقناة «الجزيرة».

واستطاعت قناة «العربية» أن تكون منافسًا له وزنه لقناة «الجزيرة» خاصة فى بعض المناسبات والأحداث الساخنة، مثل تغطية الانتفاضة الفلسطينية والاحتلال الأمريكى للعراق والهجوم الإسرائيلى على لبنان وغزة . وقدمت القناة العديد من البرامج التى تلتزم إلى حد معقول بالمعايير المهنية.

غير ان تبعية قناة «العربية» لمؤسسه MBC السعودية نالت كثيرًا من ثقة المشاهدين فيها، فلم تستطع القناة أن تحافظ على القدر المعقول من الحياد والاستقلال والالتزام بالأداء المهنى، خاصة عندما يتعلق الأمر بأخبار وأحداث ذات صلة بالسعودية، أو الموضوعات التى تتبنى السعودية فيها اتجاهًا معينًا. فعندما يتعلق الأمر بأى موضوع له علاقة بالسعودية فإن قناة «العربية» تصبح نسخة مُعَدّلة من القنوات الرسمية السعودية. وهنا تفقد القناة ثقة المشاهدين فى أنها «قناة مستقلة» كما تقدم نفسها للمشاهد. وتراجعت ثقة المشاهدين بدرجة كبيرة فى القناة، لأن الجماهير العربية لاتثق فى الإعلام الرسمى لجميع الأنظمة العربية. وبطبيعة الحال فإن قناة «العربية» لا يمكن أن نعتبرها نسخة من القنوات الرسمية السعودية المثقلة بقيود تفرضها المؤسسة الدينية والقيم الاجتماعية السائدة فى السعودية. فقناة «العربية» شأنها شأن جميع القنوات السعودية التى لاتحمل «الشعار الرسمى»، للسعودية تخلّصت من كثير من هذه القيود لتتمكن من جذب جماهير المشاهدين. لكنها ـ أى قناة «العربية» ـ

لم تتمكن من التخلص من القيود الثقيلة التى يفرضها نظام الحكم السعودى على الموضوعات التى تتعلق بالشأن السياسى المباشر. أو حتى بأساليب «الدعاية» الساذجة والمباشرة لنظام الحكم ، مثل نقل الاحتفالات والاستقبالات التى يشارك فيها رموز الحكم السعودى.

وقد يرى البعض أن قناة «العربية» لم تزل قادرة على جذب نسبة معقولة من الجماهير لعدد من برامجها خاصة البرامج الوثائقية والحوارية. وهذا صحيح، فالمشاهدون فى هذه الحالة يتابعون هذه البرامج الوثائقية أو بعض البرامج الحوارية التى لا تمس من بعيد أو قريب أى شأن سعودى. لكن ما يعنينى هو مدى ثقة الجماهير فى مصداقية القناة ومدى استقلال توجهاتها، والتزامها بالمعايير المهنية فى «الأخبار» والقضايا المتعلقة بالشأن السياسى المباشر فى جميع البلاد العربية بلا استثناء. وفى هذا الجانب فإن القناة لم تستطع أن تقنع المشاهدين بما تعلنه عن استقلالها.

قناة الاخبارية

وهى قناة سعودية أخرى متخصصة فى الأخبار والشئون السياسية، لكنها لا تزعم الاستقلال بل تبث برامجها بشكل واضح تحت الشعار الرسمى للسعودية. من هنا فإنها ـ أى هذه القناة ـ لاتختلف عن القنوات السعودية الرسمية الأخرى إلا فى كونها قناة إخبارية متخصصة، ولهذا فإن موقف الجماهير من هذه القناة هو موقف عدم الثقة فيما تبثه.

قناة مصر الإخبارية قناة النيل :

حذت مصر حذو السعودية فى التصدى لجماهير «الجزيرة». فأطلقت قناتها المتخصصة فى الأخبار والبرامج السياسية تحت مسمى «قناة النيل ـ قناة مصر الإخبارية». وحاولت السلطات المصرية أن تمنح هذه القناة هامشا معقولا من الحرية لتتمكن من جذب الجماهير ومنافسة «الجزيرة»، ولكن الظروف فى مصر، خاصة مع تصاعد حركات الاحتجاج الجماهيرى واتساع

نطاقها، ومع تفجر العديد من قضايا الفساد الكبرى السياسية والمالية، ومع دخول قنوات مصرية خاصة ساحة التغطية الحرة لهذه الاحداث، هذه الظروف كشفت هشاشة هامش الحرية الممنوح لقناة «النيل».

فعندما كانت الشوارع المصرية تموج بحركات الاحتجاج والإضرابات والاعتصامات، وكانت قضايا فساد خطيرة تتفجر فى مصر، وكانت قضايا التعذيب فى أقسام الشرطة وغيرها من قضايا الاعتداء على حريات المواطنين، وقضايا تزوير الانتخابات تمثل فقرة يومية فى برامج القنوات الخاصة.

لم تستطع «قناة النيل» أن تقترب، مجرد اقتراب من هذه القضايا ولو بقدر معقول من الالتزام المهنى. وكان موقف قناة «النيل» متطابقًا فى كثير من الأحيان مع جميع القنوات المصرية الرسمية التى تجاهلت تمامًا هذه الأحداث والتى تعايشها الجماهير وتراها رأى العين، أو تقدم لقطات منتقاة ولثوان قليلة، وتحرص على أن تنتقى اللقطات من زوايا معينه تساعد ضيوف القناة المدافعين عن نظام الحكم من الدفاع عن سياسات وممارسات النظام. وعندما تتعرض لمثل هذه الأحداث فإنها تلجأ إلى حشد رجال ورموز السلطة للدفاع عن موقف الحكومة ونظام الحكم.

وتقدم القناة نفس الوجوه من مثقفى السلطة ورجالها، وهى الوجوه التى تحتل شاشات القنوات الرسمية وتردد نفس الأقوال والتبريرات التى لا تحظى بثقة الجماهير.

أهداف هذه القنوات:

رغم أن الحديث عن أهداف هذه القنوات ورد خلال الحديث المفصّل عن كل قناة، إلا أننى رأيت أن أفرد سطورًا أركز فيها بإيجاز على الأهداف العامة التى يريد مالكو هذه القنوات تحقيقها، وأراها على هذا النحو:

١ - تبرير سياسيات أنظمة الحكم العربية التى تتعرض لانتقادات عنيفة خاصة فى الموضوعات التى يتشكل فيها رأى عام دا خلى وعربى معارض لهذه

السياسات. ومحاولة تقديم التفسيرات لإقناع الرأى العام الداخلى والعربى بصواب هذه السياسات الحكيمة.

٢ - ومحاولة إقناع الجماهير العربية بان سياسات هذه الأنظمة فى القضايا القومية تحقق المصالح القومية العليا للأمة العربية. وترى بعض هذه الأنظمة أن إقتناع الجماهيرالعربية بأن هذه القناة أو تلك تعبر عن ضمير الجماهير العربية وأحلامها يحقق لمن يطلق هذه القناة نفوذًا أدبيًّا تتم ترجمته إلى قوة سياسية تضاف إلى الوزن السياسى لهذا النظام، الذى يطلق القناة بأضعاف أضعاف قوته الطبيعية، التى تتمثل فى الموقع الجغرافى والمساحة والتاريخ وعدد السكان والثروة وإلى آخر هذه العناصر الطبيعية، التى توضع فى الحُسبان عند تقدير المكانة السياسية لأى دولة. ويتطلع نظام الحكم الذى يريد أن يحقق هذه القوة الأدبية إلى دور سياسى إقليمى يتجاوز دوره الطبيعى بكثير وإلى مكاسب سياسية لا تتحقق لدول تتجاوز مكانتها السياسية الطبيعية مكانة هذه الدولة مئات المرات. وأرى أن قناة «الجزيرة» هى النموذج الأكثر وضوحًا فى هذا المجال. فقد نقلت هذه القناة إمارة قطر من «منطقة الهوامش» على الساحة العربية إلى منطقة تنافس فيها بعض الدول العربية الكبيرة صاحبة النفوذ التقليدى.

٣ - التلويح لباقى الدول العربية التى تشتبك فى خلافات مع الدول التى تطلق القناة بأن لديها «قوة ردع إعلامى» قادرة على أن تسبب مشكلات لخصومها بفضح قضايا فساد مالى أو سياسى أو أخلاقى، تورطت فيه قيادات سياسية عليا بنظام الخصم.

وتدرك كل أنظمة الحكم العربية أن ملفات كثيرة لقضايا الفساد هذه متوفرة لدى الأنظمة الأخرى وتحتفظ بها للكشف عنها عند الضرورة. والضرورة هنا هى الاشتباك فى خلافات حادة وهى أمور متوقعة فى كل وقت بين الدول العربية.

هذه الأهداف كما نرى تتعلق بأنظمة الحكم العربية التى تملك العدد الأكبر والمؤثر من هذه القنوات، سواء أُطلقت هذه القنوات تحت الشعارات الرسمية للدولة أو أطلقها رجال أعمال أو شركات تسيطر عليها بشكل مطلق أنظمة الحكم. لكنها ترى أن تستخدم «الاستقلال الظاهرى» لهذه القنوات لتكون لديها فرصة أكبرللحركة والمناورة عند الاشتباك مع الأنظمة المختلفة معها.

٤ - وتبقى قنوات خاصة فعلا تملكها قوى سياسية معارضة لأنظمة الحكم فى بلادها أطلقت قنواتها من عواصم أوربية ومن أشهرها قناة ANN «شبكة الأخبار العربية»، والقناة التى أطلقها المعارضون السعوديون من لندن. وقناة حوار، وبعض القنوات الأخرى التى تتبنى توجهات قوى معارضة عربية مختلفة، وتمثل المعارضة المصرية والسورية والسعودية فيها نسبة معقولة.

وهذه القنوات تعانى من مطاردة أنظمة الحكم العربية لها وممارسة ضغوط لإلغاء بثها، وتأثير هذه القنوات محدود، وغالبا ما توجه هذه القنوات خطابها إلى مواطنى القطر العربى الذى يملك معارضوه هذه القناة.

وهدف هذه القنوات محصور فى تأليب الجماهير على نظام الحكم فى بلد عربى معين وتمكين القوى المعارضة لهذا النظام من أن يكون لها صوت مسموع فى بلادها مخترقة الحصار الإعلامى الذى يفرضه النظام.